الباب الأول [١٧]

العولمة المتنوعة
Globale diversité

- عناصر الكون الأربعة والتنمية المستدامة
- طواف العالم
- ثقافات، أديان، اقتصاد

عناصر الكون الأربعة والتنمية المستدامة
les quatre éléments du monde et le développement durable

سجل **ألبير كامو** Albert Camus في روايته **الإنسان المتمرد**[1]: لم يعد بإمكاننا اختيار مشكلاتنا. إنها تصطفينا. فلنقبل إذنْ أن نكون موضع اصطفاء، تلك هي بالتأكيد المفارقة التي نحن اليوم في مواجهتها.

ثمة حاجة ماسة، اليوم أكثر من أي وقت مضى، في زمن تضع فيه قوى السوق يدها على الكوكب، إلى أن نعرف أي المشكلات تختارنا وتحددنا ونفهمها، وإلى أن نعرف أي تطور وأي تنمية هما الممكنان. إننا نكتشف، على الرغم من الإمكانيات التكنولوجية الخرافية، المعاصرة والمستقبلية، أنه لا يمكن تدارك بعض الحيف الذي يلحق بالكوكب. وأن العناصر الأربعة التي تعدها التقاليد الثقافية الكبرى مكونات العالم، **الماء والهواء والتراب والنار**، التي هي الطاقة بكل أشكالها، هذه العناصر هي من الآن فصاعداً مواد نادرة، وأننا معرضون لأوبئة ومخاطر مناخية، وأن المحافظة على الشروط الطبيعية المناسبة للحياة البشرية مرتبطة بالنشاط الاقتصادي.

---

(١) L'Homme révolté ترجمها إلى العربية **نهاد** رضا، ونشرتها دار عويدات، بيروت – باريس، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م. قارن بالترجمة العربية، ص٩. [المترجم]

إننا نكتشف أن تلك الانتهاكات التي طالت التوازن بين الطبيعة والمجتمعات البشرية أفضت إلى مشكلات إما محلية وإما عامة في النمو والتنمية، فنجد على سبيل المثال أن حالات الثروات الفاحشة تتعايش مع حالات الفقر المدقع، وأن أكثر أنواع القسوة ارتداداً وبربرية هي التي تَسِمُ من الآن فصاعداً المنافسات والمعارك، وأن الدول لا تني تجد نفسها في مواجهة كيانات خاصة، وأن المعارف ليست مرتبطة بالسلطات. وأن فكرة "التنمية" نفسها تبدو كأنها إيجابية وسلبية في الوقت نفسه. ونجد أن "التطور الكبير" العلمي والتقني، المتشظي[٢]، الذي ليس له على وجه العموم قواعد تضبطه، يتوافق غالباً مع "تخلف" عقلي وأخلاقي، ومع نسيان ما يكوِّن الكائن البشري في تعقيده وفيض وجوده. ويبدو أن إعادة توزيع الثروات في آفاق قانون جديد لحق الشعوب والبشر، بل للعالم أيضاً وللموارد الطبيعية سيكون هو الهدف الأساسي في السنوات القادمة. كيف يمكن الحديث عن "تنمية" بلا فزع ولا هوى، بلا اضطراب ولا نزعة كوارثية؟ إنه لمن الواضح أن الحداثة تثير الارتجاج الذي ينتابها. إن تلك المشكلات التي تختارنا تكبح مهاراتنا وإحساساتنا وتحركها.

لقد كان **والتر بنجامان** Walter Benjamin، وهو مفكر لا نظير له، وعصيٌّ على التصنيف، قد طوَّر تحليلات فاعلة للحداثة قبل أن ينتحر في عام ١٩٤٠م في مدينة بور – بو Port-Bou بسبب عدم تسامح البشر، وعنفهم الذي يطال البحر والأرض والسماء، اختار لوحة الفنان **بول كلي** Paul Klee المعنونة: **الملاك الجديد**[٣] لتكون مقدمة لفرضياته حول فلسفة التاريخ:

هناك لوحة لكلي Klee عنوانها الملاك الجديد. إنها تمثل ملاكاً يبدو على وشك الابتعاد عما يبدو أن نظره مشدود إليه. عيونه جاحظة، وفمه مفتوح، وجناحاه

---

(٢) segmentarisé.

(٣) **Angelus Novus**. [وإنه لمن العجيب أن يكون أول معرض فني رأيته عندما ذهبت للدراسة في فرنسا عام ١٩٨٤م معرضاً للوحات الفنان السويسري بول كلي في مركز جورج بوميدو للفن المعاصر في باريس. المترجم]

مبسوطان. ذلك هو المظهر الذي ينبغي أن يكون عليه ملاك التاريخ. وجهه متوجه نحو الماضي حيث تظهر أمامنا سلسلة من الأحداث، إنه لا يرى إلا كارثة واحدة ووحيدة لا تني تراكم أنقاضاً على أنقاض وترميها عند قدميه. إنه يرغب في التوقف، وإيقاظ الموتى، وإعادة تجميع المهزومين. ولكن عاصفة هبت من الجنة ضربت جناحيه، كانت قوية حتى إن الملاك لم يعد يستطيع طيهما. [٢٠] تلك العاصفة تدفعه بلا توان نحو المستقبل الذي يدير له ظهره، مع أن الأنقاض تكدست أمامه حتى بلغت السماء. إن تلك العاصفة هي ما ندعوه التقدم[٤].

إن ما يفعله **الملاك** وهو ينشر جناحيه هو أنه يضع نفسه في حالة انسجام مع حرية النكوص والتحفظ، وهي حرية لا تعدم أن تكون مؤلمة ومقلقة، وترفض أن يصل بها الأمر إلى أن يغريها أي معبود سواء كان دينياً أم سياسياً أم اقتصادياً، ومع أنه مدعاة لتحقيق الطمأنينة بوصفه معبوداً أساسياً.

إن حرية النكوص والتحفظ تلك ربما تشبه نار التطهير التي تحرق بلا رحمة المشاعر الخيِّرة، ونحن نعرف المثل الشعبي الذي يذكِّر بأن جهنم مليئة بأصحاب المشاعر الخيرة، وعلى وجه الخصوص عندما تتخذ ذريعة للتهرّب من عناء التفكير الذي هو في غاية الصعوبة، وعندما يخلط بين كل شيء، ويسهم في الحجر على أي وجه من وجوه النزعة الإبداعية. ألا يسمح التاريخ بتطبيق مفهوم "الشجاعة في الكلام"[٥] وهو مفهوم يُغْليه حواريُّ المسيحية **القديس بول** Saint-Paul، ذلك "الكلام الحر" الذي هو أيضاً "تفكير حر"، أليس هو بذلك مدرسة حرية لا تضاهى؟ إن **ملاك التاريخ والتقدم في لوحة بول كلي كما فسرها والتر بنجامان** هو أيضاً **ملاك التنمية**، ولكنها تنمية تعي مفارقاتها، وليست آلية، ولا واجبة الوجود ولا خارقة. ولن يكون **للملاك** خيار آخر

---

(٤) والتر بنجامان، **فرضيات في فلسفة التاريخ**، باريس، دينويل ١٩٧١م، ترجمة مصححة.
Walter Benjamin, *Thèse sur la philosophie de l'histoire*, Paris, Denoël, 1971, traduction corrigée.

(٥) Parrhésia: مفهوم في البلاغة اليونانية القديمة لا يعني حرية التعبير فقط، ولكن واجب قول الحقيقة من أجل الصالح العام، حتى لو كان في ذلك خطر شخصي على المتحدث. [المترجم]

إلا خيار الحرية المؤلمة، وخيار عناء التفكير المؤلم، وذلك بأن يجعلنا نقتفي أثر تاريخ هو عولمي منذ زمن طويل، ويتساوى فيه التوسع والإلغاز، وذلك بدعوتنا إلى أن نأخذ في الحسبان مجموعة من الظواهر، ولكن أيضاً مجموعة من أقاليم وكائنات وتخيلات فرق بينها وما زال يفرق بينها غالباً الزمن والمكان.

إذا نحن أصخنا السمع لأكثر الأحداث إشكالية فإنه ينبغي أن يتكون لدينا اليوم أكثر من أي وقت مضى إحساس بأن معاصرتنا تتمثل أيضاً في أن نعيش في التاريخ، وأن نستفيد من الثقافات المختلفة، وأن نقبل الحوار بين العقلانية والوجدان، وأن نموضع أنفسنا طوعاً في مفاجأة الحياة وعاصفتها. وربما يكون هذا شرط مشاركة هي على الدوام نقدية وإستراتيجية و"إنسانية" حقاً، إذنْ ملموسة، في تنمية العالم والبشر في الأجيال القادمة، وبالتالي المشاركة في الاستدامة. إن سلوك طريق الماضي لنتجاوزه بطريقة أفضل يعني في الوقت نفسه إدماج ما تم تجاوزه وإدماج ما هو صالح، ولكن مع شيء آخر. لقد أصبحت "التنمية المستدامة" اليوم عنصراً مركزياً في النقاش العام في كل مكان في العالم.

١ – خطر البشر على الماء والهواء والأرض والنار، أمس واليوم

I. L'eau, l'air, la terreet le feu au risqué des homes, hier et aujourd'hui

إن المعرفة المتخصصة التي لا تأخذ في الحسبان إلا التشظي، التي تقسم، وتقطع، وتعزل، أفرطت في استخدام التجريد دون أن تسعى إلى بناء نفسها حسب السياق. ويبدو أن أبصار الخبراء تعمى عن الأشياء المعقدة، وعن كل متصور للشامل والأساسي؛ إذ لا يبدو أنهم يأخذون على الدوام في الحسبان سياقية الأحداث، والارتباط المتبادل للمشكلات بالزمان والمكان. وقد أدان – بالتحديد منذ الستينيات – العالم الأنتروبولوجي كلود ليفي ستراوس Claude Lévi-Strauss في دراسته المقارنة للأساطير الحدود التي رسمتها العقلانية الغربية المجردة؛ عندما بيَّن كيف أن أساطير تاريخ البشرية تعبر عن عقلانية شمولية ومعقدة، قادرة على مواجهة الشكوك والتناقضات دون أن تلغيها.

[٢١] تتوافق أساطير الحضارات المختلفة وملاحمها على حكاية أن البشر، ومنذ البدء، وجدوا أنفسهم في مواجهة العناصر الأربعة الأساسية لحياة العالم وهي: **الماء والهواء والتراب والنار**، وأنهم سعوا إلى السيطرة على قوة تلك العناصر المخيفة، التي لا يمكن الاستغناء عنها. مثال ذلك ما نجده في **الهندوسية**، التي تعد على وجه العموم أقدم الديانات البشرية، كما هو الحال في **البوذية** أو في الأديان التوحيدية الثلاثة، من أن هناك نَفَساً أولياً يشكل الوسط الذي يستمد منه البشر نَفَسهم الخاص وطاقة الحياة لديهم. وإن الآلهة الموغلة في القدم هي آلهة السماء والأرض والماء والنار. والجنان هي على الدوام أمكنة توازن تجد فيها العناصر الأربعة تعبيرها المتواصل؛ وتتمثل على وجه العموم بحدائق وارفة الظلال تنبعث منها الروائح الذكية، تنتشر في أنحائها الأشجار والثمار والأزهار، وتجري فيها أنهار صافية ثرة لا تنضب، وفيها طيور وحيوانات مدهشة، وفي خلفيتها سماء مضيئة تجري فيها الأفلاك بلا كلل ولا ملل. ولكن البشر ليسوا أهلاً للبقاء على الدوام متمسكين بهذا التوازن، وينتهي بهم الأمر باستمرار إلى استثارة غضب القوى الأصلية، وذلك بتدمير ذلك التوازن الحيوي بفعل استخدام مختل لحريتهم. لذلك كانت الحقيقة كما أشار إلى ذلك عالم الاجتماع والفيلسوف **إدغار موران** Edgar Morin مصنوعة من مزيج يتغير على الدوام نظامه وخلله وتنظيمه.

ونجد لدى الإغريق البطل **بروميثيوس**[٦] Prométhée الذي شكل أول البشر من الطين، وهو أيضاً الذي سرق نار الشمس التي أرادت الآلهة الاحتفاظ بها لنفسها وأعطاها للبشر الذين لم يعجبوا الآلهة. وكان تقديم القرابين للشمس المرهوبة لأنها تهدد كل يوم بالاختفاء، من أكثر الأمور أهمية في إمبراطورية **الأزتيك**، يطعمونها قلوب أسراهم من الأعداء ودماءهم. ونجد في الفكر السامي وفكر بلاد الرافدين أن الطوفان والريح الصرصر العاتية التي حلت بالبشرية كلها هي بالتأكيد علامة من

(٦) بروميثيوس أحد الجبابرة في الميثولوجيا الإغريقية، وتجسد قصته فيها العلاقة بين البشر وآلهتهم أفضل تمثيل. [المترجم]

علامات الانقطاع الكارثي بين الله، رب الكون، وبين مخلوقاته. إن التوترات بين الوجود البشري وقوى الطبيعة تتسبب حتماً بكوارث عظيمة تتطلب معالجتها كثيراً من الوقت والمشقات. هذا من جانب، وهناك من جانب آخر عدد لا يحصى من الحكايات الخرافية أو التاريخية حتى وقت قريب تسجل الصراع المرير للوصول إلى السيطرة على الموارد الطبيعية للكوكب. لا يني البشر يريدون تملك موارد الماء العذب، والأنهار، والأراضي الخصبة، والمراعي، والمعادن الثمينة، والممرات بين الجبال، والإطلال على البحر، ويختصمون حول ذلك كله. وقد احتفظ المؤرخون بذكرى حرب نشبت بسبب الماء في الألف الثالثة قبل الميلاد بين مدينتين من مدن بلاد الرافدين، ودارت رحاها حول صوى قنوات جر المياه من **نهر دجلة**. إن إدارة الإنسان السيئة للمخاطر البيئية، كما برهن على ذلك بوضوح الباحث الأمريكي **جاريد دياموند** Jared Diamond تسبب في عدد من المرات بزوال الحضارات. لقد اخترع **السومريون** الزراعة الكثيفة، وفتحت المجال لظهور أول المدن الكبيرة. وقد وفرت هذه الحضارة الوسائل لإنتاج كميات كبيرة من الحبوب تسمح بإطعام المدن، وذلك بأن بنت على **الفرات** سداً عظيما. ولكنها في الوقت نفسه أوجدت بذلك شروط سقوطها؛ لأن ظواهر التبخر وزيادة ملوحة التربة تسببت في تراجع كبير في محصول القمح، فانتقل المزارعون إلى زراعة الشعير الذي يقاوم الظواهر المذكورة أكثر من القمح، ولكن ذلك كان عبثاً. وعلى العكس مما سبق فإن المجتمع **الياباني** استطاع في القرن السادس عشر تلافي انحسار الغابة بتأسيس نظام ضبط محلي، أوجد توازناً بين الحاجة وإنتاج الأخشاب خلال أكثر من مئتي سنة[٧]. وإنه لمن الملاحظ أن أبطال القصائد الملحمية الكبرى يطمحون على الدوام إلى السيطرة أو إلى امتلاك هذا أو ذاك من عناصر الكون الأربعة، أو عليها كلها مرة واحدة، معرضين أنفسهم للمخاطر والهلاك. مثال ذلك أن رواية **ألكسندر** الرمزية التي نجد لها

---

(٧) **جاريد دياموند، انهيار. كيف تقرر المجتمعات اختفاءها أو نجاتها**، باريس، منشورات غاليمار، ٢٠٠٨م.

Jared Diamond, Effondrement. *Comment les sociétés décident de leur disparition ou de leur survie*, Paris, Ed. Gallimard, 2008.

نسخاً متتالية في مصر وفي بلاد الإغريق ثم في العالم العربي ولدى اللاتينيين تحكي كيف استطاع البطل الذي أظهر إرادة لا تعرف الانكسار في الغزو حتى تخوم الأرض [٢٢] في أعماق البحر اللجية، أو عنان السماء الذي لا نهاية له دون رغبة ألبتة في وضع حد لما يفعله وانتهى به الأمر بعد أن أغضب القوى السماوية ضحية عبدين بائسين دسا له سماً قوياً أحرق أمعاءه. أما بليني[٨] Pline المتقدم، مؤلف كتاب **التواريخ الطبيعية** Histoires naturelles في القرن الأول قبل الميلاد، وقائد الأساطيل الرومانية، الذي اشتهر بعلمه، فإنه كان منذ تلك الأيام قلقاً من استخدام البشر للعالم. وهو بلا شك واحد من أوائل المؤلفين الذين طرحوا مسألة التنمية من وجهة نظر علم الأخلاق البيئي. وهو يورد التحليل التالي:

كان العلماء فيما مضى لا يأملون في جوائز قيِّمة: كانوا يسهمون في التقدم الاقتصادي والفني، ويعملون على تعميق المعرفة، ولا يأملون إلا أن يكونوا نافعين للأجيال القادمة. وفي أيامنا هذه تراجعت الأخلاق، وطغى الحس النفعي. فالبحر يفتح أحضانه للبحارة، والشواطئ تفتح ذراعيها لاستضافتهم، ولكن باسم الثراء لا باسم العلم: وبذلك عملت العقول العمياء للبشر المهوسين بشهوة التملك على وضع العلم أيضاً في خدمة الرغبة في الترف.

الأرض طيبة وحنونة ولطيفة، وهي خادم لا يتعب في توفير حاجات البشر... أي عطر، وأي نكهة، ليس فيها إلا أطيب الأشياء للشراب والطعام، أي لذة في اللمس، وأي ألوان! إنها لا تُخيِّب ظننا بها البتة في الثروة المؤتمنة عليها، إنها تُنَمِّي كل شيء لصالحنا... لقد قدمت لنا أدوية لأوجاعنا، ونحن جعلنا من ذلك أسلحة ضد الحياة...

---

(٨) **بلينيوس الأكبر** (Caius Plinius Secundus): كاتب ومؤلف روماني كبير. عاش في القرن الأول للميلاد. ولد عام ٢٣ أو ٢٤ ق. م، وتوفي في ٧٩ م خلال ثورة بركان **فيزوف** (Vésuve). سمي **بلينيوس الكبير** للتفريق بينه وبين ابن أخيه **بلينيوس الصغير** (Gaius Plinius Caecilius Secundus). كتب غير كتاب، إلا أن كل ما وصلنا من كتبه هو كتابه الموسوعي المسمى **التاريخ الطبيعي** *(Naturalis historia)* ويقع في ٣٧ مجلداً، وقد نقل فيه معارف عصره من علوم طبيعية وعلم نبات وعلم فلك وجغرافيا وغيرها. [المترجم]

ونحن على الرغم من كل ذلك نواجه إحسانها بالنكران: فلكي نعدد طرق المواصلات سواء كان رصيف مرفأ أو برزخاً، إننا نراكم الأرض في البحر أو على العكس نحفرها. وهي في كل لحظة مجبرة على المعاناة من الماء أو الحديد أو النار أو الخشب أو الحجر أو البذور لتكون أكثر استجابة لملذاتنا وحاجاتنا في آن معاً. وعلى الرغم من ذلك فإن التعديات على سطح الأرض محتملة؛ ولكننا نغوص في باطنها نبحث فيها عن عروق الفضة والذهب، وعن طبقات الفضة والرصاص؛ إننا نحفر سراديب عميقة بحثاً عن الأحجار الكريمة وبعض الماسات البائسة؛ إننا نقتلع لبها لكي نستخرج منه جوهرة تزين إصبع من يحفرها!... إن كل موارد الثروة تقودنا إلى القتل والحرب، إننا نسقيها بدمائنا، ونغطي وجهها بعظامنا غير المدفونة، وينتهي بها الأمر، وكأنها تود أن تدين جنون القتل لدينا، إلى إخفاء معالم جرائم البشر بموارتها عن الأنظار.

وإن مما أدخله في باب الجحود أيضاً جهلنا بالطبيعة الخيرة الكريمة التي لا تني تتجدد منذ قرون طويلة في حين أن الحرائق والتهديم والانهيارات والسرقات تترك آثارها السلبية كل يوم في العالم أجمع على الرغم من إفراط البشرية في تبديد ثرواتها.

لقد أسرف البشر منذ تأسيس روما في استخدام الثروة السمكية... حتى إنه أصبح من الضروري سن قانون يمنع ممارسة المضاربة على البضاعة واحتكارها... أما اليوم فإن السمك الشائع هو سمك أبي مصقار الذي هو نوع السمك الوحيد الذي يجتر الطحالب ويتغذى عليها... وقد أقام أحد العبيد الذين أعتقهم الإمبراطور كلود Claude، أويتاتوس Optatus، قائد الأسطول، محميات لسمك أبي مصقال على الشاطئ بين أوستي Ostie والشركة، وأجبر الصيادين على أن يرموا في الماء فوراً سمك أبي مصقال الذي يصطادونه لحماية هذا النوع من السمك. وقد أصبح منذ تطبيق هذا الإجراء متوافراً بكميات كبيرة على الشاطئ الإيطالي.

إننا نهاجم الأرض في صميمها ونستمر في العيش فوق الهاويات التي حفرناها... إننا نجهد أحشاءها، نبحث عن ثرواتها... والحال أنه [٢٣] نادراً ما يكون لبحوثنا هدف طبي. من الإنسان الذي يحفر الأرض ليجد دواء؟... إن تلك الكنوز

المختفية في أعماق الأرض يحتاج تكونها إلى زمن طويل ؛ لذلك فإن عقلنا الذي يتأمل في الفراغ، يعد القرون التي يحتاجها ليستنزف تلك الكنوز... كم ستكون الحياة بريئة وسعيدة، وكم ستكون بديعة لو أن رغبتنا اقتصرت على ما هو على وجه الأرض، وعلى ما هو قريب منا[٩]!

إن الأرض في الإشكالية البيئيَّة والاجتماعية في آن معاً، في الإشكالية التي يطرحها العالم بليني في نصه، تبدو في مظاهرها المختلفة كما لو أنها كائن حي، يتمتع بمشاعر أخلاقية، وبخصوبة وكرم لا حدود لهما ؛ ونجد بفعل هذه الواقعة أن الأرض في الأسطورة الإغريقية والرومانية هي إلهة، ولدت كبير الآلهة، وعرفت كيف تحافظ عليه حياً على الرغم من إرادة والده. ويأسف بليني لأن الإنسان يعمل بهدف التملك والمتعة، غير مهتم بأي اعتبارات أخرى إلا بأن يكون منطقه القائم على المنفعة متماسكاً، وبأن لا يكون لاستقلاليته أي حد. ليست الأرض فقط مخزوناً من المواد الأولية المتاحة بلا أي حد للاستخراج والاستخدام بهدف صناعة منتجات تلبي الرغبات البشرية. يشير العالم ذو النزعة الإنسانية بقلق إلى أن الاستخدام المسرف للأرض يمكن أن يشكل مخاطر هي في الوقت نفسه طبيعية وإنسانية. عارضاً على قرائه كوارث ممكنة الحدوث، ويبدو أنه يقصد بعض البطء في النمو الاقتصادي للبشر عندما يوصي بأن "لا نرغب إلا فيما هو قريب منا"، أي ما تستطيع يدنا الوصول إليه. إن الاستخدام الأمثل للعالم، وهو هنا احترام ثروات الأرض، يتطلب إذنْ كما يرى بليني تفكيراً اقتصادياً وسياسياً وأخلاقياً في آن معاً.

لنذكر هنا، وما نقوله سيكون صدى لاهتمامات بليني فيما وراء القرون، ببعض المعطيات الراهنة. تقول الإحصاءات التي أجرتها مجموعة الخبراء البيحكومية حول التغير

---

(٩) بليني، تواريخ طبيعية، غرونوبل، منشورات جيروم ميون، ١٩٩٤م. لترجم الكتاب الخامس من التاريخ الطبيعي للمؤرخ بليني الأكبر وذلك عن اللغة اللاتينية أ.د. محمد المبروك الدويب. من جامعة المرقب في ليبيا، ولم يشر إلى تاريخ نشره. المترجم].

Pline, *Histoires naturelles*, Grenoble, Jérôme Millon Éditions, 1994.

المناخي[١٠] المشهورة التي حصلت على جائزة نوبل للسلام بالمشاركة مع آل غور Al Gore عام ٢٠٠٧م إن الأرض هي منذ زمن في طور الاختناق. فـ ٦٠٪ من الأنظمة البيئوية[١١] يجري استغلالها بما يفوق طاقاتها. ويأتي الإفراط في الصيد على ٧٥٪ من مخزون الثروة السمكية، وقد اختفت في السنوات الخمس الأخيرة ٣٦,٦ مليون هكتار من الغابات، أي مساحة تفوق مساحة ألمانيا. ويصيب سوء التغذية حسب منظمة الفاو (FAO) ٨٥٤ مليون شخص، كما يعاني مليار شخص من ٦,٥ مليار هو العدد الحالي لسكان الأرض من فقر مدقع. وقد ارتفعت في القرن العشرين في الجو كثافة غاز ثاني أكسيد الكربون إلى ما نسبته ٤٠٪، ويمكن أن يكسب معدل درجات الحرارة ٤ درجات في نهاية القرن، مما يقلل من مناطق الحياة والبقاء. وإنه لمن المثبت المحقق أن حقول البترول معرضة للنضوب أيضاً. وإنه لمن المستحيل أن يستمر العالم في استهلاك البترول بالوتيرة الراهنة، وعلى وجه الخصوص إذا تبنى الصينيون والهنود نمط الحياة الغربية. هل سيكون المستقبل هو عالم ينبغي أن نتصارع فيه من أجل الماء والهواء والتراب والنار؟ وإن جهود الحكومات في هذه المجالات كلها ما زالت غير كافية، وهناك مجموعة من المخاطر التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان دون أن نعزف عن التنمية والتطور. وإذا كانت التنمية عنصراً لا يمكن فصله عن السعادة البشرية فإنه ينبغي تحقيقها بطريقة أخرى.

لنأخذ في الحسبان حالتين من بين حالات أخرى. إن التجمع السكاني في مدينة مكسيكو التي يبلغ عدد سكانها عشرين مليون نسمة ينتشر في مضيق يرتفع ٢٠٠٠م عن سطح البحر، تحيط به جبال وبراكين ناشطة، ويجري فيه ٤٥ نهراً. كان ذلك المضيق في الأصل بحيرة ضخمة يتجاور فيها بفضل براعة سكانها الأوائل الماء العذب والمالح، وكانت الأراضي الزراعية تتمم مناطق الصيد والصناعات اليدوية والتجارة. وقد وضع البشر عندما جففوها حداً للتوازن الرائع بين العناصر الأربعة. فظهرت الهزات الأرضية

---

(١٠) (GIEC) Groupe d'experts intergouvernemetal sur l'évolution du climat

(١١) Écosystyme= نظام بيئوي، وهو وحدة بيئوية قاعدية تتشكل بالبيئة الحية والحيوانات والنباتات التي تعيش فيها. [المترجم]

المرتبطة بالنشاط البركاني ؛ والماء الذي جرى جره عبر قنوات اختلط ، وهناك [٢٤] تسرب كبير للمياه العذبة ؛ ويمثل التخلص من النفايات إشكالية ، كما هي حال التخلص من المياه الآسنة ، وانتقال البشر والبضائع ؛ لقد تلوث الهواء بفعل تضخم النشاطات البشرية ؛ والأراضي أصبحت تالفة ومخسوفة. وعلى الرغم من التقدم التقني الخارق الذي حققته المدينة ، وهو تقدم يجعل كل شيء يسير تقريباً فإنها ، شأنها شأن كل التجمعات السكانية في العالم ، معرضة لخطر شامل يمكن أن يأتي على التوازن غير الثابت الذي تكاد المدينة تبلغه. إن واحدة من الهزات الأرضية القادمة ، إذا ترافقت بعواصف عاتية وأمطار غزيرة ومستمرة فإنها يمكن أن تسبب عطلاً كهربائياً ، وانقطاع قنوات جر مياه الشرب وقنوات تصريف المياه الآسنة ، وتسرب الهيدروكربورات في أنظمة معالجة المياه ، وارتفاع منسوب الماء المختلط إلى ارتفاع طابق واحد في عدد كبير من أحياء المدينة مما يمكن أن يهدد حياة السكان. إذاً ، ينبغي التحسب لعدد من الأخطار دون أن ننسى هنا أيضاً أهمية تأهيل الأشخاص الذين يسكنون المدينة وتحفيزهم. هناك أفكار وأفعال إنسانية ينبغي تجهيزها ، بوصفها متمما لا يمكن الاستغناء عنه لأكثر أنواع التقدم التكنولوجي فعالية في الشركات المختصة في هذه المجالات ؛ تلك الأفكار وتلك الأفعال هي في صلب الاهتمامات الحقيقة للشركات والمؤسسات. وتسعى مدينة مكسيكو ، شأنها شأن السلطات في الحكومة ، بحزم لتحقيق ذلك.

في فبراير "شباط" عام ٢٠٠٨م اجتاحت نصف الصين عاصفة مطرية وثلجية لم تشهد لها البلاد مثيلاً من قبل. وقد أصاب الشلل قسماً كبيراً من البلاد ، فأصبحت محرومة من التدفئة والكهرباء ، ومن أنواع المؤن المختلفة ، ومن وسائل الانتقال. وقد وجد ملايين الأشخاص الذين كانوا يودون الذهاب إلى الأقاليم التي فيها مسقط رأس كل واحد منهم للاحتفال بالسنة الصينية الجديدة ، وجدوا أنفسهم ، محجوزين في محطات القطار بلا أي مساعدة أو أي إمكانية نقل. لقد تجلى بوضوح أن نمو البلاد الذي يسهم إسهاماً ملحوظاً في المشكلات العامة للتغير المناخي ، وفي التلوث ، وفي أزمة الغذاء والطاقة ، هذا البلد ، لم يستطع إدماج هيئات قادرة على إدارة الحالات الطارئة.

وقد سبق ذلك في عام ١٩٩٨م الفيضان الكبير لنهر **يانغتسي** Yangtsé، وفي عام ٢٠٠٣م الأزمة الصحية التي سببها فيروس **الالتهاب الرئوي الحاد** SRAS وهي أزمة جعلت السلطات السياسية تفكر في إنشاء مكاتب خدمات شعبية تقوم على أسس فاعلة. ويذكر المراقبون أن الحكومات المحلية اكتفت بالحفاظ على استتباب الأوضاع؛ واتضح أن النظام التسلسلي هو نظام موغل في الصرامة. وخصوصاً أن السمة الغالبة كانت الغياب التام لأي شكل من أشكال المساندة والمساعدة غير المؤسساتية سواء كانت تعاونية أو شعبية. ولا يمكن لأي خطر طبيعي أن يقدر حق قدره منفصلاً، وعلى وجه الخصوص دون أن يؤخذ في الحسبان ضرب من المخاطر الأخلاقية الخالصة المتمثلة في عدم وضع أسس تأهيل الأشخاص الذين ينبغي عليهم أن يتولوا الإدارة التقنية لتلك المخاطر وتحفيزهم. وقد لاحظ عدد من المراقبين أن الفاعلية في إدارة المخاطر الطبيعية مرتبطة بمصادقة مواطني البلد على تلك الإدارة، وبافتخارهم بأن يكونوا، هم أنفسهم، صانعي تنميتهم المستدامة.

كيف يمكن للحكومات أن تتدخل في هاتين الحالتين، كيف يمكن أن يتشكل لديها وعي بضرورة التوازن بين عناصر الكون الأربعة؟ إن **المكسيك**، وعلى وجه الخصوص مدينة **مكسيكو**، ومنذ الأربعينيات، مع **جمعية الحفاظ على الأرض والماء**[١٢] تولي البيئة اهتماماً كبيراً. وقد اكتسب موضوع الفوضى البيئية منذ الثمانينيات أهمية كبرى. وفي عام ١٩٨٢م استحدثت وزارة بمسمى: **الأمانة العامة لإحياء المدن بيئياً**[١٣]، المشاكلة **للجمعية الفيدرالية للحماية من الأميانت**[١٤] وفي عام ١٩٨٨م تمت المصادقة على **الجمعية العامة للتوازن البيئي والحماية من الأميانت**[١٥]. وفي عام ١٩٨٩م استُحْدِث **المجلس الوطني**

---

(١٢) *Ley de Conservación de Suelo y Agua*.

(١٣) *Secretaría de Desarrollo Urbano Ecológico (SEDUE)*.

(١٤) *Ley Federal de protección al Ambiente*.

(١٥) *Ley General del Equilibrio Ecológico y la protección al Ambiente (LEEGEPA)*.

للمياه[١٦]، وهو سلطة فدرالية في مجال المياه وحماية الأحواض المائية ومراقبة معالجة المياه. وفي عام ١٩٩٤م استُحْدِثت وزارة البيئة والموارد الطبيعية والثروة السمكية[١٧] وأنيطت بها مهمة التوفيق بين المنظورات الاقتصادية [٢٥] والاجتماعية والبيئية. وفي عام ٢٠٠٠م عُدِّل مسمى تلك الوزارة إلى مسمى: أمانة البيئة والموارد الطبيعية[١٨] من أجل إيلاء اهتمام أكبر لسياسة وطنية لحماية البيئة، وتمثلت واحدة من اهتمامات تلك الوزارة في صياغة فكر وفعل يأخذان في الحسبان الإنسان لديها، وعلى حل مسألة احتياجاتها الهائلة للطاقة فإن تلك الدولة استحدث وزارة للبيئة. وفي جانب آخر تقوم من الآن فصاعداً في المركز الفرنسي – الصيني للبيئة والطاقة شراكة بين المدارس الفرنسية للمهندسين وبين جامعة تسينغهوا Tsinghua في مدينة بكين، وهي واحدة من أعرق جامعات الصين. ولكن المراقبين يشيرون إلى أنه لم يثبت حتى الآن أن الصين تقبل بأن تدفع من أجل التنمية المستدامة. ولنشر إلى أنه في عام ٢٠٠٨م حُكم على أحد الأغنياء الصينيين لوو زهونغفو Luo Zhongfu، مدير شركة عقارية بالسجن الفعلي عشر سنوات ونصف بسبب أنه خالف القانون عندما أمر بقطع الأشجار في أرض مخصصة لمشروع عقاري طموح ومربح، وبمخالفة مالية قدرها ٥٠٠٠ آلاف يورو بسبب اجتثاث الأشجار والاستخدام غير القانوني للأراضي الزراعية والتعدي على العدالة.

وبذلك يكون اليوم، كما كان على الدوام، الأمر الضروري بذاته بسيطاً. إن اقتصاد القرن الحادي والعشرين لن يكون بالإمكان بناؤه دون تأسيس علاقات توازن بين الإنسان وعناصر الكون الأساسية الأربعة. وإن التعديات الحاصلة على هذه العناصر تهدد بخطر سلام الإنسانية ومستقبلها. وما نرمي إليه في سياق القرن الحادي والعشرين الذي سيشهد ارتفاع عدد البشر إلى تسعة مليارات نسمة في عام ٢٠٥٠م هو البحث عن

---

(١٦) *Comisión Nacional del Agua*.

(١٧) *Secretaría de Medio Ambiente y Recursos Naturales y Pesca (SEMARNAP)*.

(١٨) Secretaría de Medio Ambiente y Recursos Naturales (SEMARNAT).

مصادر طاقة جديدة ومتجددة، وابتكار خواص اقتصاد إعادة الاستخدام والتدوير، وتعديد جوانب التجديد في الصراع ضد هدر المواد النادرة. إن هذا هو ثمن الحياة.

إنه لمن المؤكد أنه لا يمكن إهمال المعطى القائل: إن الموارد الطبيعية محدودة، وإنه من المستعجل أن نتعلم أن هناك ثمناً للحصول على ما هو نادر وثمين، وأن نبتدع صيغاً أخرى للنمو. إن الميزة الكبرى لمفهوم التنمية المستدامة الذي جرى استخدامه لأول مرة عام ١٩٨٠م[١٩] هو أنه يدرج في منظور أشكال اتخاذ القرار لدى أساطين الاقتصاد، ليس على المدى القصير فقط وإنما في الوقت نفسه على المدى الطويل والطويل جداً أيضاً، ليس على المستوى الاقتصادي فقط وإنما البيئي والاجتماعي أيضاً. لقد أعطى التقرير المسمى: **من أجل مستقبل مشترك** الذي صدر عام ١٩٨٧م، واشتهر أكثر باسم **تقرير بروندتلان** الذي يجمع الأعمال التي جرى تنفيذها في نطاق **اللجنة العالمية للبيئة والتنمية**[٢٠] التي تشكلت عام ١٩٨٣م في نطاق **هيئة الأمم المتحدة** وبرئاسة رئيس الوزراء **النرويجي غرو هارلم بروندتلان** Gro Harlem Brundtland، هذا التقرير أعطى تعريفاً للتنمية المستدامة. إن التنمية المستدامة تحيل في المقام الأول إلى منطق تشترك به الأجيال لأنها معرفة بوصفها إجراء "يسعى إلى الاستجابة للاحتياجات الراهنة دون أن يعرض للخطر قدرة أجيال المستقبل على تلبية احتياجاتها". والمقصود من الآن فصاعداً توقع نتائج أفعالنا لخمسة وعشرين بل لخمسين بل لخمسة وسبعين عاماً، إذا كنا نأخذ في الحسبان أن ما نسميه جيلاً يمتد خمسة وعشرين عاماً على وجه التقريب. ونجد في المقام الثاني أنه اتسع في مفهوم رأس المال. إذ ينبغي أن ندرج في كل خطوة من خطوات التنمية

---

(١٩) العبارة مذكورة في البرنامج المعنون: إستراتيجية الحفاظ على العالم World Conservation Strategy: Living Resource Sustainable Devlopment الذي اشترك في التوقيع عليه الاتحاد العالمي للحفاظ على الطبيعة Union internationale pour la conservation de la nature (UICN)، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة le programme des Nations Unies pour l'enveronnement (PNUE) والمنظمة غير الحكومية: الصندوق العالمي للحياة البرية ONG World Wildlife Fund (WWF).

(٢٠) Commission mondiale sur l'environnement et le développement (CMED).

المستدامة ثلاثة أبعاد: **الاقتصادي والبيئي والاجتماعي**، مما يعني أن نمو مجتمع ما لكي يكون مستمراً في الزمن يفترض الإنتاج وتوسعة الأبعاد الثلاثة لرأس المال المخزون: يتكون رأس المال الاقتصادي من الكوادر والبنى التحتية والتكنولوجيا والمهارة، ويتكوّن رأس المال البيئي من كل الموارد الطبيعية التي يرثها جيل ما، أما رأس مال العدالة الاجتماعية فيمكن تشبيهه بعملية دمج مجموع الأفراد في المجتمع مما يقتضي إعادة توزيع [٢٦] في الحد الأدنى على الأقل للثروات التي تُنْتج في نطاقه. إن هذا القطع المزدوج: التوسع في الأفق الزمني، والتوسع في مفهوم رأس المال يجعل عملية التقويم الاجتماعي واتخاذ القرار عملية معقدة حتماً. ينبغي العزوف على المدى القريب عن قسم من تلبية الاحتياجات فترتفع الأصول النقدية. ويشكل ذلك ثورة ثقافية حقيقية. وتكمن كل الصعوبة في أن نعرف كيف نتصرف وبأي سرعة نفعل ذلك.

لقد دعا الرئيس الفرنسي السابق **جاك شيراك** Jacques Chirac في الثاني من فبراير"شباط" عام ٢٠٠٧م إبان مؤتمر **باريس** من أجل إدارة بيئية عالمية إلى "ثورة في الضمائر والاقتصاد والفعل السياسي". ولكن ضغوطات المدى القريب تتعارض غالباً مع موجبات المدى البعيد، والسوق لا يأخذ في الحسبان مصير أجيال المستقبل في وضع الأسعار، وإن العولمة والتجارة هما في صراع مع حماية البيئة. كيف يمكن تشجيع انتشار التكنولوجيات النظيفة، والعناية بالغابة التي هي رئة الإنسانية، وتجديد موارد صيد الأسماك، وحماية التنوع البيولوجي، وتنظيف المياه، وتنقية الهواء، والسعي إلى إيجاد طاقات بديلة؟ لن يستطيع الإنسان إذا تجاوز حدود عتبة معينة أن يوجد ثروة على كوكب يتعرض لتلف شديد.

وينشر **البنك الدولي** من الآن فصاعداً في كل سنة إحصاءات تتعلق بالنسب العالمية لإطلاق الكربون أو ثاني أكسيد الكربون CO_2. وإنه لمن الملاحظ أن **المكتب التنفيذي لآلية التنمية النظيفة**[٢١] التابع لهيئة الأمم المتحدة لم تعد لديه الإمكانيات

---

(٢١) *Bureau exécutif du mécanisme de développement propre (BEMDP).*

اللازمة لمواجهة تشظي البرامج. وآية ذلك أن حجم المبادلات ارتفع من ٣١,٢ مليار دولار عام ٢٠٠٦م إلى ٦٤ مليار عام ٢٠٠٧م. وهناك أكثر من ٢٠٠٠ برنامج تنتظر أن تخصص لها الاعتمادات اللازمة. وتظل الصين للسنة الثالثة على التوالي المستفيد الأول من الـ (MDP) (آلية من أجل تنمية نظيفة): لقد استفادت بكين من ٧٣٪ من الوحدات المخصصة للتخفيض المؤكد لإطلاق الكربون (URCE) التي تم تسويقها في العالم عام ٢٠٠٧م. وقد تولدت هذه المخصصات جوهرياً عن عمليات تفعيل في الطاقة، وتغيير في المواد المحروقة (٤٠٪) وعن تمويل مشاريع الطاقة المتجددة (٢٤٪). وإنه لمن المعلوم أن كل تلك العمليات، بوصفها صيغاً جديدة للنمو المستدام، تقدم منظورات اقتصادية ضخمة. وقد قرر البنك الدولي في جانب آخر إنشاء صندوقيْ استثمار في مجال المناخ. يسمى الأول "تقنية نظيفة"، ويقدم تمويلاً جديداً على نطاق واسع من أجل إقامة مشاريع تقنية تقوم على إطلاق أقل نسبة ممكنة من ثاني أكسيد الكربون. ويسمى الثاني "الصندوق الإستراتيجي من أجل المناخ"، وهو يمول البرامج التجريبية حول الطرق المبتدعة للتعامل مع التغير المناخي.

إن دور المنظمات غير الحكومية في مسألة الوعي بأهمية التنمية المستدامة هو دور في غاية الأهمية. لذلك قامت في هذا السياق في يونيو"حزيران" ٢٠٠٨م المنظمات غير الحكومية الأوروبية بتقديم شكوى لمجلس أوروبا ضد بلجيكا وفرنسا وألمانيا وبولونيا وسلوفانيا وإسبانيا وإيطاليا؛ لقد أخذوا على هذه الدول أنها لا تلتزم بضرورة إعلان مقدار استهلاك الكربون وإطلاق ثاني أوكسيد الكربون CO_2 على دعايات السيارات المطبوعة من أجل المستهلكين عند تسويق السيارات الخاصة الجديدة.

يمكن للشركات التي تنخرط في التنمية المستدامة أن تسهم إسهاماً نفيساً في هذه "الثورة الثقافية". مثال ذلك أن مجموعة سويز Groupe Suez أصبحت اليوم واحداً من الأساطين الرئيسيين "للاقتصاد التدويري" بأن قامت بتحديد مكبات النفايات التي يمكن إعادة استخدامها وتدويرها لتعيد منها إنتاج مواد أولية ذات جودة عالية يعاد إدماجها في دورة إنتاج منتجات جديدة. أما النفايات التي لا يمكن

إعـادة اسـتخدامها ولا تـدويرها فـيمكن اسـتخدامها لإنتـاج الطاقـة. وبـذلك يمكـن السيطرة على الآثار الـتي تتركهـا في البيئة. وبـذلك تـصبح إدارة النفايات ورقة رابحة للاقتـصاد والبيئـة وتـسهم في إدارة متوازنـة وضـرورية لعناصـر الكـون الأربعـة الـتي أصبحت ثروة نادرة وثمينة.

[٢٧] لقد غنى المغني جاك دوترون Jacques Dutronc لثلاثين سنة خلت أغنية تقول:

سبع مئة مليون صيني، وأنا وأنا وأنا، تلك هي الحياة، تلك هي الحياة

ويستقر في أفهامنا من الآن فصاعداً أنه ليس هناك إلا كوكب واحد، وأننا إذا أردنا الاستمرار في الحياة فإنه ينبغي أن تقوم جماعة مؤلفة من الحكام والمواطنين والشركات بتحمل مسؤولية الحياة.

٢- حركة الحياة

II. La vie en movement

كيف يمكن تحمل مسؤولية الحياة؟ إن الذكاء المقسم المقطع يحطم القيم المشتركة في العالم، يجزئ المسائل، يفرق ما هو مترابط. إنه يحطم كل إمكانيات الفهم والتفكير، إنه مذل. وإن الملاحظة القديمة التي أبداها كل من **أوريللو بيكيشي**[٢٢] Aurelio Peccei و**ديساكو إيكيدا**[٢٣] Daisaku Ikeda تتأكد في كل يوم:

إن المقاربة الاختزالية التي تتمثل في الاعتماد على سلسلة واحدة من العوامل لحل كل المشكلات التي تطرحها الأزمة المتعددة الأشكال التي نتجاوزها حالياً هي حل لا يرتقي إلى مستوى المسألة[٢٤].

---

(٢٢) صناعي إيطالي، في مجال السيارات (فيات، أليطاليا، أوليفيتي) (١٩٠٨ - ١٩٨٤م)، أسهم في عام ١٩٦٨م في تأسيس نادي روما. [المترجم]

(٢٣) مثقف وفيلسوف وشخصية دينية يابانية، ولد عام ١٩٢٨م في طوكيو، له مشاركات في مجالات عديدة، وهو عضو في نادي روما. [المترجم]

(٢٤) صرخة تحذير من أجل القرن الحادي والعشرين، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ١٩٨٦م.
Cri d'alarme pour le 21e siècle, Paris, PUF, 1986.

إن علاقة الإنسان بعناصر الكون الأربعة، وبطبيعة الكون لا يمكن تصورها تصوراً مجزأ: فالكائن البشري مترسخ، في الوقت نفسه، في الطبيعة الحية والفيزيائية للعالم، إنه ينبثق عنها ويتميز منها بضميره وبثقافته؛ وإن كمونه الحيوي مرتبط إذنْ بقدرته على الربط بين المعارف المجزأة.

وإنه لمن الملاحظ أن الفكر الصيني القديم[٢٥] اختار، عن علم، الإعراض عن النشاط والمعرفة التي حكم عليهما بأنهما لا غاية لهما، وهما بالتالي تضران بالطاقة والحيوية، واكتفي بالتركيز على قدرة الكائن البشري على إظهار كمونه الحيوي والحفاظ عليه. وعرف أحد أهم مفكري **الطاوية**، الحكيم **زهوانغزي**[٢٦] Zhuangzi، انطلاقا من ذلك، الطبيعة البشرية بأنها الحياة بالمعنى الحصري في مواجهة أي تشيع في التصرف الإنساني لأي نظام مهما كانت درجة سموه. إذنْ، ترجع إلى كل إنسان مسؤولية "إغناء الحياة"، حسب العبارة التي استخدمها الحكيم الصيني، بالمسؤولية واليقظة. ولكن ماذا يعني قوله: **إغناء الحياة**، وما شرط الحياة؟ إن **زهوانغزي** يروي بطريقة موحية كل الإيحاء القصة التالية. اكتشف الحكيم **كونفوشيوس** بدهشة أن رجلاً نجا من مسقط ماء ضخم ومريع كان قد سقط فيه، واختفى، فطرح عليه سؤال طاوه[٢٧]: ما الطريقة التي اتبعها

---

(٢٥) قارن بفرانسوا جوليان، تغذية حياته على هامش السعادة، باريس، سوي، ٢٠٠٥م.
Cf. François Jullien, Nourrir sa vie à l'écart du bonheur, Paris, Seuil, 2005.

(٢٦) ولد في بلاد الصونغ (هينان الحالية) نحو عام ٣٦٩ ق.م، ومات عام ٢٨٦ق.م... بنى أفكاره على المجرد وغير المفهوم، وغامر بعزم وتأن فيما وراء المدرك، فكان بذلك أول فيلسوف صيني حقيقي. وقد أسس تفكيره على النصوص الصوفية التي جمعها تحت اسم وهمي أسطوري هو (لازومي) أكثر من اعتماده على حكايات الدروس القديمة التقليدية وطقوسها. وفي هذه النصوص الصوفية ذكرت مفاهيم الطريق والإلهام والكائن واللاكائن. إلا أن رسالته ذات المعاني المعقدة لم يكتب لها البقاء. انظر: تاريخ الصين، تأليف دانييل أليسيف، ترجمة يوسف شلب الشام، نشر وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠٠٧م، ص٣٤ - ٣٦. [المترجم]

(٢٧) Son tao: طاوه، والطاو في اللغة الصينية هو الصراط. وقد نما الطاو عند لا وتسه وتلامذته فأصبح هو المبدأ والمآل. المبدأ الذي تأتي منه كل الأشياء، والمآل الذي ترتد إليه كل الأشياء. والطاو هو أيضاً القانون الطبيعي أو الكيان الذاتي للأشياء. انظر كتاب الطاو، هادي العلوي، الأعمال الكاملة ٤، دار المدى، دمشق، ط٢، ٢٠٠٧م، ص١٣. [المترجم]

للنجاة، وللنجاح في تجاوز عنف الماء الهائج؟ فأجاب الرجل حينئذٍ بأنه لا طاو له: لم أفعل أي شيء إلا اتباع طاو الماء وليس لدي أي سر خاص آخر... وآية ذلك أن الرجل اقترن بطاو الماء ممتثلاً لترددات ومع حركته، لقد ترك التيار يشهق به ثم يزفره. لقد أسلم نفسه لحيوية مسقط الماء في كل أبعادها، دون أن يبدي أي مقاومة لذلك لم يلحق به أي ضرر. وبذلك لم يفعل الرجل شيئاً آخر إلا أنه تحرك دون أن يستنفد حيويته[٢٨] ودون أن يكون عليه التدبر والقيادة. ولا تتعلق المسألة هنا إلا بحركة الحياة وحدها بوصفها حفاظاً على الحياة في مواجهة مشكلة تتضمن ضروباً من الانقطاع وفقدان التوازن والتشكيك. كان يمكن لعقلانية مجردة ووحيدة البعد أن تتسبب بموت الرجل في حين أن عقلانيته المنفتحة في حوار منفرد مع واقع مسقط الماء السحيق طورت كمونه الحيوي.

[٢٨] ويضرب لنا **زهوانغزي** مثالاً دالاً آخر. إن وصفه الرائع للجزار الذي يذبح الثيران بسهولة بساطوره[٢٩] يجعلنا نفهم ضرورة أن يظل الإنسان تطورياً، وأن يدير

---

(٢٨) ساق قصة زهوانغزي فرانسو جوليان، مصدر سابق، ص٨٩ - ١٠١، ونجده أيضاً في كتاب الأستاذ التاوي، لي زي: في الفراغ التام، باريس، منشورات ريفاج، ١٩٩٩م.

Lie Zi, Du vide parfait, Ed. Rivages, 1999.

(٢٩) جاء في كتاب التاو، م. س، ص١٥٧ - ١٥٨: "كان طباخ الأمير ون هوي يقصب ثوراً: كل ضربة من يده، كل رفعة من كتفه، كل دوسة من قدمه، كل لوية من ركبته، كل صوت من اللحم المقصوب، وكل دقيقة من دقائق حركة القصاب كانت تجيء في توافق تام، موزونة كأنها رقصة "أخدود التوت"، تلقائية مثل أوتار تشينغ شوو.

قال الأمير: مدهش هكذا فنك الكامل يكون.

فألقى الجزار ساطوره وعقّب: ما يحبه خادمك هو التاو، الذي هو أكثر تقدماً من الفن. لما بأت لأول مرة تقصيب الثور كان ما رأيته ببساطة هو الثيران كلها. ثلاث سنوات من العمل لم أر المزيد من الثيران. وأنا اليوم أشتغل بذهني لا بعيني، توقفت وظائف إحساسي وتغلبت روحي.. متبعاً عروقي الطبيعية ينزلق ساطوري خلال التجاويف الكبرى والفتحات الكبرى مستفيداً مما هو حاصل بالتمام. لا أتقصى العروق المركزية وتفرعاتها والترابطات ما بين اللحم والعظم ناهيك عن العظام الكبرى. الطباخ الجيد يبدل ساطوره مرة في العام لأنه يقطع. الطباخ العادي يبدله كل شهر لأنه يحزز. وساطوري مر عليه تسع عشرة سنة. وجزرت به عدة ألوف من الثيران وما زال حاداً كأنما جيء به من المسن تواً. تحتوي الأوصال دائماً =

إمكانيته الكامنة بالقوة مهتدياً باستمرار إلى سبيل لا تعيقه ولا تسد المسالك في وجهه، وهي الطاو، دون تبديد ولا مقاومة مفرطة.

وإن المقصود هو أنْ يضع المرء نفسه في حالة امتثال للواقع، وهي هنا ضخامة الثيران المفيدة لتغذية البشر دون أن نمارس العنف عليه، محترمين أشكاله وقوته. ذلك هو شرط الحياة.

وفي العصر نفسه تقريباً يلح الفيلسوف الإغريقي **أفلاطون** Platon في حوار **طيمايوس**[٣٠] على أهمية أن يتصالح الكائن البشري مع حركات الكون؛ لأن الكون الذي يرى أن كماله سماوي يمثل نمطاً لا يمكن للإنسان أن يستغني عنه:

لن نستطيع تثبيت الحركات التي لا تني تنقّل فينا من مكان إلى آخر إلا بعد أن ندرس دراسة معمقة الحركات السماوية، وبعد أن نكتسب مهارة حسابها حساباً صحيحاً بالتطابق لما يحدث في الطبيعة، وبعد أن نحاكي حركات الإله، وهي حركات لا تضل ألبتة[٣١].

إن الحركات التي تُمتُّ بصلة قرابة للجانب السماوي فينا، هي أفكار الكون وانتفاضاته. تلك هي الحركات التي ينبغي على كل فرد بالاتفاق معها، عبر دراسة معمقة لإيقاعات الكون وانتفاضاته، وبتقويم الانتفاضات التي فقدت توازنها في رأسنا عند ولادتنا، ينبغي، أن يعيد الحركة التي تتأمل تلك الانتفاضات التي تشبه ما هو

= على صدوع وحافة الساطور بلا سمك إن أولجنا ما ليس فيه سمك فيما فيه صدوع تكن له فسحة كافية للتحرك على أني إذ أصل إلى شلو معقد وأجد بعض الصعوبة أواصل بلا حماس وبلا حذر. أثبت عيني فيه. أتحرك على مهل ثم، وبحركة في منتهى الرفق من ساطوري، ينفصل الشلو بسرعة مثل تراب يتفتت فوق الصعيد. بعدها أجيل النظر واقفاً والساطور في يدي مفعماً بنسيم الرضا والفوز، ثم أمسح ساطوري وأضعه في قرابه. عقب الأمير: هائل. لقد تعلمت من كلمات هذا الطباخ وسائل تهذيب الحياة. [المترجم]

(٣٠) **طيمايوس**: *le Timée*: أحد حوارات **أفلاطون** يصف فيه خلق العالم من لا شيء. [المترجم]

(٣١) أفلاطون، تيمي، ٤٧ ب٦ - ج٤.

Platon, Timée, 47b6 - c4.

متأمل بالعودة إلى حالته الطبيعية السابقة، وبعد تحقيق ذلك التشابه أن يدرك هدف الحياة الأسمى الذي تقدمه الآلهة للبشر من أجل الحاضر والمستقبل[٣٢].

إذا كان "حساب" الحركات السماوية يبدو مترافقاً بالضرورة مع "محاكاة حركات الله"، ويحيل إلى عقلانية من نمط تجريدي "تثبيت الحركات التي لا تني تنقل فينا من مكان إلى آخر" فإنه يحيل عبر نقيضه نفسه إلى تلك العقلانية المنفتحة التي لا تعدم التذكير بطريقة تصرف الشخص الذي يترك مسقط الماء يأخذه على مرأى من الحكيم **كونفوشيوس**. فالكائن لا يكون كائناً إلا إذا كان متناغماً مع الكون. ويضيف **أفلاطون** أن ذلك "التشابه" للذات مع "الحركات التي لا تضل ألبتة" للكون الإلهي تنضوي تحت لواء البحث عما يسميه "الحياة الأسمى التي تقدمها الآلهة للبشر من أجل الحاضر والمستقبل". إذنْ، إنه لمن المناسب للإنسان أن "يمر" عبر الكون. ويؤكد **أرسطو** Aristote هو أيضاً، في كتاب **أقسام الحيوان**، ودون أن يعزو السلوك البشري إلى نسق مفارق، أن تأمل الطبيعة يورث "لذة لا يمكن التعبير عنها" لمن يتقن فن التأمل، أي التموضع وموضعة كل كائن في المخطط العام للطبيعة[٣٣].

وبعد عدة قرون يتردد صدى ما قاله **أرسطو** لدى **شيشرون** Cicéron في كتابه، **لوكوللوس: الأكاديميات الأول**[٣٤]:

إن احترام الطبيعة وتأملها هي كالغذاء الطبيعي للأرواح والعقول، إنهما يقوماننا ويسموان بنا، إنهما يجعلاننا ننظر إلى الأشياء البشرية من علٍ؛ إن أفكار

---

(٣٢) أفلاطون، تيمي، ٩٠ج٧ – د٧.

(٣٣) أرسطو، أقسام الحيوان، ١، ٥، ٦٤٤ب ٣١.

Aristote, Parties des animaux, I, 5, 644b 31.

(٣٤) موضوع كتب **الأكاديميات لشيشرون** هو عرض الجدل الذي أثاره ظهور أكاديمية جديدة في الفلسفة، وهناك **الأكاديميات الأول** و**الأكاديميات الثواني**، وقد أطلق عليهما اسم واحد هو **لوكوللوس**، ولم يصل إلينا من **الأكاديميات الأول** إلا الجزء الثاني، وبعض الثواني. ولوسيوس لوسينيوس لوكوللوس *Lucius Licinius Lucullus* (١١٥ق.م – ٥٧ق.م): رجل دولة وجنرال روماني. سمى **شيشرون** كتابه باسمه. [المترجم]

الكائنات السامية والأشياء السماوية يجعلاننا نحتقر أفكارنا لأنها أفكار بسيطة ومحدودة[٣٥].

وإن واحداً من كتب المسيحية المقدسة، **أعمال الرسل** Actes des Apôtres مخصص بتمامه للرحلات المتتالية التي قام بها **الرسل** في عالم **البحر الأبيض المتوسط** تلهمهم في ذلك شعلة الروح القدس [٢٩] براً وبحراً لنشر تعاليم رسالة سيدهم في القرن الميلادي الأول قائلين: **لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد (أعمال الرسل، ١٧، ٢٨)**[٣٦].

إن الرابط المشار إليه هنا بين المفاهيم الثلاثة: الحياة والحركة والوجود، في إطار سرد لقصص الرحلات، متوازن مع عناصر الكون الأربعة، هو بالتأكيد رابط جدير بالملاحظة.

وفي أزمنة أخرى وأمكنة أخرى من تاريخ العالم نجد الحكيم الفارسي **حي بن يقظان** يحث الفيلسوف **ابن سينا** خلال لقاء تدريبي على الاستكشاف العقلي للكون[٣٧]. إن العين الخرارة التي يدعو الحكيم الفيلسوف إلى أن يغتسل فيها تمنحه القوة ليجوب العالم، والمعني بدقة هو أن يضع معارفه بوصفه فيلسوفاً في سياقها الصحيح، وأن يفهم تعقيدات الحياة، ويعيش حياته ويوجهها. يقول الحكيم:

.... وأما حرفتي فالسياحة في أقطار العوالم حتى أحطت بها خبراً... ثم إني استهديت هذا الشيخ سبيل السياحة استهداء حريص عليها مشوق إليها فقال: ... ومما يفيده الاغتسال في عين خرارة في جوار عين الحيوان الراكدة إذا هدي إليها السائح

---

(٣٥) شيشرون، لوكوللوس، **الأكاديميات الأول**، ٢، ٦١، ١٢٧، في: الرواقيون، باريس، غاليمار، ١٩٦٢م، ص١٤٦ - ١٤٧.

Cicéron, Lucullus, Premiers Académiques, II, XLI, 127, dans Les Stoïciens, Gallimard, 1962, p. 146 - 147.

(٣٦) العهد الجديد، أعمال الرسل، الترجمة العربية، ص٢١٠. [المترجم]

(٣٧) يقول هنري كوربان في كتابه (ابن سينا والحكاية التنبئية، باريس، بيرغ أنترناسيونال، ١٩٧٩م، ص١٥):
إن كاتب هذه القصة هو الجوزجاني تلميذ ابن سينا المخلص.

Henry Corbin, Avicenne et le récit visionnaire, Paris, Berg International, 1979, p. 15.

فتطهر بها وشرب من فراتها سرت في جوارحه منة مبتدعة يقوى بها على قطع تلك المهام، ولم يترسب في البحر المحيط...[٣٨]

وفي وقت لاحق ينضوي الفيلسوف والمتصوف المسيحي لويس دو ليون[٣٩] Luis de león تحت لواء المنظور نفسه، عندما يروي في كتابه **في أسماء المسيح** Du Noms du Christe الذي كتبه في **سلمنقة**[٤٠] Salamanque نحو عام ١٥٨٥م قصة شديدة الشبه بقصة **زهوانغزي أو قصة ليي زي**. خرج ثلاثة من الرهبان من ديرهم، ومن المدينة التي يسكنونها، وكانوا يتجاذبون بسلام أطراف الحديث على صفة أحد الأنهار. وفجأة لاحظوا أن صقرين يتهيآن للانقضاض على عصفور صغير. ولكن العصفور الصغير استطاع الإفلات من مطارديه بأن غاص في أمواج النهر العاتية واختفى فيها. ولم يكن أمام الصقرين المغتاظين إلا أن يوليا الأدبار. أسف الرهبان وبكوا العصفور. ولكن هاهو يظهر من جديد ممتلئاً بالحياة. لقد عرف عندما كان مهدداً بالموت كيف يتوافق مع إيقاع النهر، ونسي السمة المرعبة لهذا العنصر. لقد أدرك بفضل علاقته الحميمة مع العنصر، ومع سيرورته الطبيعية التي هي سيرورة الطبيعة والعالم، منطق التطور، وقد وجد بذلك مخرجاً. لقد عرف كيف يطيل حياته. لقد أعاده النهر، لقد انبجس من النهر دون أن يلحق به أي أذى، واستطاع أن يحلق في عنان السماء متخلصاً من الصقور القاتلة، قادراً على إبداع تغريد رائع. أما الرهبان الذين عرفوا حدود عقلهم وحدود حكمهم فقد أصبح العصفور بالنسبة إليهم تجلياً من تجليات إلههم الذي أصبح إنساناً، ومات

---

(٣٨) القصة التي ترجمها هنري كوربان، م.س، ص ١٥٧. [وانظر النص العربي لقصة حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي، تحقيق وتعليق، أحمد أمين، ذخائر العرب ٨، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٨م، ص٣٢، ٣٣، ٣٤. المترجم].

(٣٩) شاعر وكاتب إسباني، ذو نزعة إنسانية (١٥٢٨ - ١٥٩١م)، تمتاز مؤلفاته بإحساس عميق بالروحانية. [المترجم]

(٤٠) لويس دو ليون، في أسماء المسيح، مدريد، كاتيدرا، ١٩٨٦م، ص ٥٦٢ - ٥٦٣.

Luis de león, De los Nombres de Cristo, Madrid, Cátedra, 1986, p. 562 - 563.

وبعث حياً. وإنه لمن الجدير بالملاحظة أن هذا التعريف المقترح بصيغته الحالية للتنمية، وللتطور المستدام، وهو تعريف يمكن الدفاع عنه، يستبعد كل جري وراء هدف، وكل سعي إلى غاية، وعلى وجه الخصوص غاية السعادة، إذ ينبغي على كل إنسان حسب معياره الخاص، وفي اختلافه، أن يتعلم من أين يمر ليعيش. إن الحياة هي الأمر الجلل، أن يتمتع الإنسان بكامل إمكانات قدراته، وأن يعيش حياته ويطيلها.

وفي العصر نفسه حرص **مونتيني في محاولاته** على إظهار أن "تنوع الأحداث الإنسانية" يحيل إلى الحركية الأصيلة في الأشياء والعالم؛ إنها ذلك "الحراك الدائم التدفق"[٤١]. إن مونتيني يقابل "الحكمة اللاإنسانية" للخبراء الذين يأنفون من أن يخصصوا تفكيرهم [٣٠] لمصاعب الواقع وإحراجاته[٤٢]، ولا يتطلعون إلا إلى حقيقة ما يمكن إدراكه، إلى المتشابهات، يقابل كل ذلك، بما يسميه "ثقافة الجسد":

إنني أنا الذي لا يحسن إلا ثقافة العوام أكره تلك الحكمة اللاإنسانية التي تسعى إلى أن تجعل منا محتقرين لثقافة الجسد وأعداء لها[٤٣].

إن مسلكنا العادي هو اتباع رغبات شهيتنا، إلى اليسار أو إلى اليمين أو إلى الأعلى، أو إلى تحت، حسبما يقودنا هوى الفرص... إننا لا نمضي برغبتنا، إننا نقاد كما تقاد الأشياء التي تطفو تارة بهدوء، وتارة بعنف حسبما يكون الماء هائجاً أو هادئاً[٤٤].

---

(٤١) مونتيني، محاولات، طبعة بيير فيلليي، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ١٩٨٨م، في الحدس، ٢، ١٧، ٦٥٤ – ٦٥٥ وفي التوبة، ٣، ٢، ٨٠٤ – ٨٠٥.

Montaigne, Essais, édition de Pierre Villey, Paris, PUF, 1988, De la présumption, II, 17, 654 - 655 et Du repentir, III, 2, 804 - 805.

(٤٢) *Apories*= إحراجات: والإحراج هو في الفلسفة وضع رأيين متعارضين لكل منهما حجته في الإجابة عن مسألة بعينها. عن المنهل [المترجم].

(٤٣) مونتيني، محاولات، في التجربة، *De l'expérience*، ٣، ١٣، ١١٠٦.

(٤٤) مونتيني، محاولات، في عدم انسجام أعمالنا، *De l'inconstance de nos action*، ٢، ١، ٣٣٣.

ليس هناك في نهاية الأمر أي وجود مستمر، لا لكينونتنا ولا لكينونة الأشياء. إننا، وإن حصافتنا وكل الأشياء الفانية، لا ننى نسيل ونسير. لذلك لا يمكن التثبت بالتأكيد في أي منها، وإن الحاكم والمحكوم هما في حال تحول مستمر واهتزاز.(٤٥)

إن مونتينْي ينتصر هنا بوضوح للزائل الأساسي الذي هو أيضاً المبتذل الجسدي، والعارض، والجمعي، أي الإنسان. وإنه عندما يفعل ذلك يمارس "المحاولة" حقاً بوصفها تعرفاً على عدم الإنجاز، ونفياً مع عدم التأكد، ومع اللاخطية، ومع انعدام التوازن، ومع التفريع، ينتصر لكل هذا ضد فلسفة مجردة، ونمطية، تدعي الشمول زوراً وبهتانا. لذلك يقول لنا مونتينْي:

أنا لا أصف الكينونة، وإنما أصف العبور

ما العبور؟ يجيب مونتينْي إنه الحياة على الأرض، وهو بذلك يتفق مع حدوس وقناعات بعض من أكبر حكماء الزمن الماضي ومتصوفيه الذين ينتمون إلى ثقافات متعددة. لأن الحياة التي هي "في ذاتها هدفه ومصيره" تنضوي تحت لواء فيض التاريخ والثقافات، وهي تبني الحرية.

لذلك ينبغي على كل إنسان أن "يثري الحياة" بمسؤولية ويقظة، وأن يحتفظ "بكل حيوية كينونته الفيزيائية"، وهي حيوية تتمثل في عدم شيخوخة الكينونة الفيزيائية كما يقول الحكيم **زهوانغزي**، وتدل عليها سحنة نضرة، وبشرة "تشبه التماع الثلج".

ويرى **ابن سينا** الرأي نفسه عندما يروي أن **للحكيم حي بن يقظان** سحنة بهية من شدة البياض والشباب، لقد عرف كيف يحافظ - في آن معاً - على فتوته وطول عمره(٤٦): **شيخ بهي قد أوغل في السن وأخنت عليه السنون وهو في طراءة العز،**

---

(٤٥) **مونتينْي**، محاولات، منافحة، ٢، ١٢، ٦٠١.

(٤٦) **هنري كوربان**، ترجمة قصة **حي بن يقظان**، م.س، ص١٥٤. [وانظر النص العربي، مصدر سابق، ص٣٢. المترجم].

لم يهن منه عظم ولا تضعضع له ركن، وما عليه من المشيب إلا رواء من يشيب. لأنه ليس هناك ثنائية بين المظهر والمخبر.

إذاً، ما الذي ينبغي استفادته من الأستاذ "لإثراء الحياة"؟ يجيب أحد مريدي الحكيم زهوانغزي: **كنت أدور بالمكنسة على باب الأستاذ، فماذا تريدونني أن أحفظ عنه؟** ويعطي الفيلسوف فرانسوا جوليان François Jullien التأويل التالي:

إن قوله: أدور بالمكنسة يتضمن تضمناً مبدئياً عناية عن قرب، محتشمة، ولكنها صادقة، إنها عناية تشارك في الحفاظ على الحياة وتجددها... إن في هذا إجابة في حالة عمل أو بالأحرى إجابة في حالة حراك إذا صح التعبير[٤٧].

[٣١] وتتضح في المنظور نفسه، وبطريقة غير منتظرة، واحدة من آخر صفحات **كتاب الحياة** – وإن تسمية الكتاب بهذا الاسم ليست بداهة تسمية طارئة – للمتصوفة الإسبانية **تيريز دافيال**[٤٨] Thérèse d'Avial. فبينما كانت قد انتهت للتو من تأسيس أول أديرتها، نجدها تقارن نفسها بمكنسة موضوعة خلف أحد الأبواب، يستخدمها المرء كما يرغب بحركة لا متعجلة ولا كسولة[٤٩]. وتدل المكنسة، لأنها ليست على الدوام لا ظاهرة ولا مخفية، وليست في الخارج أو في الداخل، تدل، على أنه ليس التقدم نحو مثل أعلى هو ما ينبغي التطلع إليه هنا، وإنما ينبغي ببساطة التطلع إلى أن يبقى المرء "تطورياً"، في حالة تطور داخلي وخارجي، بالتوافق مع إيقاع الحياة في الدير وفي الكنيسة الموجودة فيه، إنه إيقاع يشبه حالة استنشاق عميق، كأنه تناوب النهار والليل وتتابع الفصول: إنه حسب ما يقول **مونتيني** أيضاً يتمثل في عبارة: عندما أرقص،

---

(٤٧) فرانسوا جوليان، م.س، ص٣٠.

(٤٨) تيريز دافيال (١٥١٥ – ١٥٨٢م): قديسة كاثوليكية، اشتهرت بأنها سيدة الروحانية المسيحية، وقادت حركة إصلاحية في الأديرة. [المترجم]

(٤٩) تيريز دافيال، كتاب الحياة، الفصل ٤٠، باريس، سوي، ص٤٧٣.

Thérèse d'Avial, Le Livre de la Vie, chp. 40, Paris, Seuil, p. 473.

أرقص، وعندما أنام أنام[٥٠]. إن **تيريز دافيال** تجعل من كتابها، من حياتها التي ضمنتها كلمات ثم كتبتها، تخلياً عن أحداث الحياة الطارئة لكي تجدد الجوهر الحيوي للحياة، وهو ما تسميه "العناية بحديقة الروح". تلك الحياة الجديدة التي تكشف الواقع اللاعقلاني، والمظلم، الذي لا يمكن عقلنته، تتجاوز كل رغبات الكائن البشري، وكل رغباته التافهة في المجد والخلود. إن المتصوفة التي لم تكن تعيش لذاتها، عاشت عمراً مديداً وأسست أديرة عديدة.

ويعبر نص عظيم آخر من النصوص **الصينية القديمة اللاوزي**[٥١] Le Laozi عن هذه القناعة نفسها:

إن ما تتسع به السماء وتمتد به الأرض في البقاء

هو أنهما لا تعيشان لذاتهما؛

وهما بذلك قادرتان على الحياة الطويلة (٧)[٥٢]

أن يعيش المرء "كما هو" أو "لذاته" يعني أن يتطلع إلى حياته الخاصة. في حين أن السماء والأرض اللتين لا تسعيان لنفسيهما بالبقاء تبقيان. العيش لا يأتمر بأمر الهدف. وهناك نص مسيحي يعبر عن الفكرة نفسها تقريباً؛ وأعني هنا فقرة من **إنجيل يوحنا**[٥٣] تتحدث عن الحياة الأبدية:

من يحب نفسه يهلكها ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية (إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٢، الآية ٢٥)[٥٤].

---

(٥٠) **مونتيني، محاولات**، م.س، **في التجربة**، ٣، ١٣، ١١٠٧.

(٥١) مجموعة نصوص صينية جمعها **زهوانغزي** تحت اسم وهمي أسطوري هو (لاوزمي). انظر **تاريخ الصين**، م.س، ص٣٦. [المترجم]

(٥٢) اقتبسه فرانسوا جوليان، م. س، ص٣٩.

(٥٣) بالفرنسية هو جان Jean. [المترجم]

(٥٤) انظر الترجمة العربية **للكتاب المقدس، إنجيل يوحنا**، ص١٦٢. [المترجم]

إن خاصية الحياة، شرط أن تكون حياة تطورية، متناغمة، هو أن تفلت من قياد نفسها. ليس لكي تتقدم نحو مثل أعلى وحيد هو المهم، بل أن تبقى تطورية، منفتحة، في حوار مع واقع يقف في وجهها. وإن الحكاية التوراتية عن موت **موسى** عند مدخل الأرض التي أعطيت لبني **إسرائيل** دالة بما لا مزيد عليه في هذا السياق. لما عصى **موسى** أمر الله، وهو أمر غريب لأنه كان يتعلق بأن يكلم هو وأخوه **هارون** الصخرة أمام أعين بني **إسرائيل** لتعطي ماءها، ولأنه لم يوبخ الشعب غير المؤمن، عندما حدث ذلك، أظهر ذلك النبي الذي عاش حياته كلها في مواجهة المقدس، وقضاها بطولها يقود الشعب العبري عبر الصحراء نحو الأرض التي أعطيت لهم، أظهر، أنه لم يحسن أن يظل تطورياً، طيعاً تماماً، تشكله الحياة كما تريد. لذلك كان جزاؤه أن لا يدخل تلك الأرض، لم يكن المهم هو التقدم وإنما التطور[٥٥]. ذلك هو منطق الشأن الحيوي وإستراتيجيته، وهو منطق يتضمن الغياب والمجيء، والإلهام والانتهاء على حد سواء. يقول نبي المسيحية الذي نفخ الله فيه من روحه[٥٦] "أضع روحي بين يديك"، وينتهي حياته في اللحظة نفسها الذي تتفجر فيها قوة حياته.

حينئذٍ، ما الحياة "الأفضل"؟ هل يقصد بها حياة السعادة، حياة "سعيدة"؟ وبمَ تتمثل "تلك الملذات التي لا يمكن التعبير عنها"؟ ولكن البشر ما فتئوا منذ **أفلاطون** و**أرسطو** غير متفقين على محتوى السعادة. وإنه لمن الواضح أن تناغم [٣٢] التحول المتدرج الطبيعي الخاص للإنسان، المتفق مع تحول العالم، وهو تحول يعول عليه الفكر الصيني والحكم التقليدية، وينضوي تحت لواء منطق تطوري، أي منطق تنقية وتحول، ليس له إلا علاقة بسيطة مع البحث عن حالة وحيدة وثابتة أو الحجر عليها. إن منح

---

(٥٥) **سفر الأعداد**، الإصحاح ٢٠، الآيات من ٨ – ١٢. [وانظر الترجمة العربية للكتاب المقدس، **العهد القديم**، **سفر الأعداد**، ص٢٢٦. المترجم].

(٥٦) في الأصل: إله النصارى الذي صار إنساناً. وهذا لا يتفق مع الرؤية الإسلامية للمسيح عليه السلام الذي يقول تعالى إنه نفخ فيه من روحه. وقد ترجمنا ما في الأصل بمقتضى المعتقد. [المترجم]

السعادة أفضلية يفترض في الفكر الصيني إبراز نقيضها، التعاسة، وهو بذلك يجعلها تنطوي عليها. إن لهدف "الحياة الفضلى" في الفلسفة الإغريقية علاقة بأكثر قدرات الإنسان سمواً، العقل. ولكن الحكم التقليدية أو بعض التحليلات الحديثة لبعض علماء الأنتروبولوجيا ولبعض الفلاسفة أثبتت أن العقلانية الحقة هي تلك التي تعرف حدود الأنظمة، والانسجام والتجريد، وتترك مجالاً للوجدان، ولانعدام التوازن، ولغير المتوقع. ويعترف أرسطو في كتابه **الأخلاق إلى نيكوماك**[٥٧] بأن الحياة السعيدة بوصفها حياة تأملية هو حياة سامية كل السمو بالنسبة إلى الشرط الإنساني، وإن الإنسان لن يتمكن من بلوغها إلا بقياس قدرته على التأله! وإذا كان **فرويد**، في إثر **أرسطو**، يرى أن كل فعل وكل اختيار يسعى إلى غاية هي سعادته، سواء كان تجنب الألم أو الحصول على اللذة فإنه يعلم أيضاً أننا نأمل بسعادة تستمر في حين أننا لا نستطيع التلذذ إلا بالتعاكس، وهذا يعني بالتالي أننا نتلذذ عرضياً. ألم يبرع الشاعر **غوتة** Goethe في قول ذلك عندما قال:

كل شيء في العالم محتمل الحدوث
إلا توالي أيام السعادة[٥٨]

لا يرغب المرء بالضرورة في "السعادة التي يتطلع إليها. هل البشر كلهم مهتمون حقّاً بالسعادة، بسعادتهم الشخصية كما تريدنا أن نصدق تلك الإعلانات التي تغطي جدران مدننا؟ ليست الإجابة عن السؤال بديهية كما قد يبدو ذلك.

إن الإيديولوجيا الغربية هي التي أقرت في الأذهان حتمية مفادها أن انتظار "السعادة" غاية تتمثل غالباً في سيطرة الكمية على النوعية، وفي سيطرة الغايات البعيدة والنفعية. مع أن الحكم الصوفية الغربية والشرقية تلتقي لتظهر أن ما يهم هو التطور الحر، الحيوي، وأن يكون المرء في طور واحد مع السيرورة الجمعية للحياة

---

(٥٧) *l'Éthique à Nicomaque*.

(٥٨) ومثله قول أبي العتاهية: تأتي المصائب حين تأتي جملة وأرى السرور يجيء في الفلتات.

والذات والعالم. إن نظافة المياه والهواء والأرض والنار واستمراريتها مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً بصحة البشر واستمراريتهم. وإن مفهوم "الحب المطلق" عند المتصوفين الهندوس أو المسلمين أو النصارى، وهو مفهوم يرتكز على وجهة نظر تقوم على إنكار الذات، وعدم الاهتمام بالسعادة المستقبلية، ينضوي تحت لواء هذا المنظور.

إن ما يهم عند هؤلاء المتصوفة هو القدرة الخالصة على العطاء والحراك، وعلى التفاعلية المؤسسة على السابق الأصلي الذي صنع العالم والبشر، وهو ما سماه الفيلسوف المسيحي ستانيسلاس بريتون[٥٩] Stanislas Breton "الحلولية السامية" في كتابه مرآة الكون الحية – منطق عمل في الفلسفة[٦٠]. يبذل الإنسان مجهوداته الحيوية في وسط أو في فضاء هو العالم، وهو عالم يلازمه أو يشبهه، لأنه، شأنه شأن العالم، مخلوق إلهي؛ إن الحب المطلق هو مفهوم توافقي.

إن المتصوفة عبروا، على وجه العموم، تعبيراً شاعرياً عن اهتمامهم بالوسط الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجودنا نفسه؛ فالكائن الصوفي لا ينفصل عن أي كينونة، طبيعية كانت أو ثقافية، سواء كانت عشب حقول أو فضلة بائسة. ذلك هو البعد الذي يمكن أن نصفه بأنه شرعة صوفية خالصة، ذلك الاهتمام بكل كينونة لأننا موجودون في العالم، ونجد فيه المبدأ الحيوي للحياة. لذلك نجد عدداً من النصوص الدينية نكتفي بذكر بعضها مثل نصوص الفيدا Védas، وأشعار ابن عربي، ونشيد المخلوقات لفرانسوا داسيز François d'Assise أو أيضاً النشيد الروحي لجان دولاكروا Jean de la Croix، وأيضاً بعض الحكم البوذية، تعبر ببراعة عن هذه الشرعة. إن التعارض الغربي المحض بين الجسد والعقل، وبين الطبيعة والثقافة موضع الشك. إن التطور الحيوي الذي تجري المراهنة عليه هنا لن يشكل بعد اليوم "أسطورة خالصة من المركزية الاجتماعية الغربية"، وهي مركزية اجتماعية يندد بها – وهو محق في ذلك – إدغار موران Edgar Morin.

---

(٥٩) فيلسوف ولاهوتي فرنسي(١٩١٢ – ٢٠٠٥م)، يعد ممثلاً رئيساً للفلسفة المسيحية في فرنسا. [المترجم]

(٦٠) ستانيسلاس بريتون، مرآة الكون الحية، منطق عمل في الفلسفة، باريس، سيرف، ٢٠٠٦م.
Stanislas Breton, Le vivant miroire de l'univers - logique d'un travail de philosophie, Paris, Cerf, 2006.

إن القبول بما هو متعدد ومعقد في الحياة، وبالحياة بوصفها حراكاً، وبالحياة المتحركة، وهو ما كان وما هو اليوم حسبما رأينا هدف دعاة الإنسانية وحكماء [٣٣] مختلف التقاليد الثقافية التي يعود تاريخها إلى آلاف السنين، ونشأت في أمكنة مختلفة وفي أزمنة مختلفة من أزمنة التاريخ، كل ذلك، يتخذ اليوم طابعاً مستعجلاً. والمقصود اليوم هو الإجابة عن ذلك التساؤل المضطرب الذي هو حسب حكاية أسطورية هندية أول مولود للطبيعة، وملازم للكائن البشري، وشرط حريته وتطوره الحيوي.

٣- خيبة أمل العالم

III. Le désenchantement du monde

إن العالم بوصفه فضاء للمعنى الممكن، وإمكانية ضخمة من الموارد لا يبوح بأسراره إلا في إطار الاستخدام، أي نوع من أنواع الاستخدام أو عدم الاستخدام الذي يطاله. وإن مما يجدر ذكره أن الفلسفة والنقود ولدا في آن معاً تقريباً وفي الأمكنة نفسها، في القرن السادس قبل الميلاد، بلاد اليونان القديمة "نتيجة اتفاق عُقِد بين بعض المدن **الأيونية**، منها **مليت وإيفيس**[٦١] Milet et Ephèse ومملكة ليدي Lydie لابتداع وسيلة تسديد تستخدم في الدول كلها"[٦٢]. هناك بالتحديد أعد **طاليس المليتي**[٦٣] Thalés de Milet، وهو تاجر نبيه وثري، تأمله الفلسفي. وبعد حين أصبحت **أثينا** عاصمة الفكر، ومركزاً سياسياً واقتصادياً وعلمياً وفنياً بفضل ازدهارها التجاري بين

---

(٦١) مدينتان تقعان اليوم في تركيا. [المترجم]

(٦٢) قارن بـ **ميشيل أماندري**، "أصل النقود وتطورها في ليدي وعند الفرس في القرن السادس قبل الميلاد" في المال، امتلاكه أو عدم امتلاكه؟، ملتقى مواعيد بلوا Blois، ٢٠٠٦م.

Cf. Michel Amandry, "Origine et évolution de la monnaie en Lydie et chez les Perses au 6em siècle avant Jésus - Christ", dans l'argent, en avoire ou pas? Colloque des Rendez - vous de Boils, 2006.

(٦٣) **طاليس من مليت** (٦٣٥ ق.م. - ٥٤٣ ق.م). يعرف أيضا **بطاليس المليتي**، أحد فلاسفة الإغريق قبل سقراط، وواحد من حكماء الإغريق السبعة، يعتبره العديد الفيلسوف الأول في الثقافة اليونانية وأبا العلوم. عاش طاليس في مدينة مليت في **أيونيا**، غرب **تركيا**. [المترجم]

٦٠٠ و ٢٠٠ ق. م تقريباً. وعندما زالت **الإمبراطورية الهلنستية** غابت شمس العلم الإغريقي بزوالها[٦٤]. وحصل الأمر نفسه بعد سقوط **الإمبراطورية الرومانية** إبان بداية القرون الوسطى في الغرب؛ إذ لم تتابع الأفكار حياتها إلا في بعض الأماكن، وبفضل بعض البشر. وفي العصر نفسه، القرنان الرابع والخامس الميلاديان، إبان حكم سلالة **غوبتا** Gupta التي وحدت شمال الهند كله، شهدت الحضارة الهندية التقليدية ذروة تقدمها في العلوم والآداب والفنون. وما ذكرناه ليس إلا غيض من فيض أمثلة كثيرة. ويبدو بجلاء من تاريخ مختلف الحضارات أن القوة الاقتصادية وازدهار الفكر، في أي مكان وفي كل الأزمنة، وبالأمس كاليوم، متلازمان. وبالتالي، إنه لمن المنطقي أن تقود الأحداث الإشكالية المعاصرة المرتبطة "بعاصفة" تطور الأعمال الدولية، والمعتقد الجديد في قانون واحد للعالم يسمونه **العولمة**، المرتبطة أيضاً ببعض إحراجات التقدم العلمي والتقني، تقود، الإنسان إلى إعادة صياغة تساؤلات تقليدية تنصب على العالم، وعلى موقعه في العالم، وعلى التأثير المتبادل بين الظواهر الطبيعية والمجتمعات، وعلى الحرية، وعلى التقدم.

وفي القرن السابع الميلادي كانت **إسبانيا القوطية** الغربية تعتقد بأن مصائبها نتيجة آثامها. في حين أنه كان هناك عالمان، **ملك ومطران**، من أتباع المفكرين الإغريق واللاتينيين، انتبها إلى أن شعبهما لا يمكن أن يعد الظواهر الطبيعية المقلقة بوصفها تعلن عن عقوبات كارثية، فكتب الملك Sisebut قصيدة "فلكية" جعلها ملحقاً لبحث في الفيزياء عنوانه **في طبيعة الأشياء** De la nature des choses، وأوصى به لصديقه، الذي يدانيه علماً، **المطران إيزودور الإشبيلي**[٦٥] Isidore de Séville. لقد كان ما يرمي إليه الملك بمساعدة المطران هو التالي: منع التعازيم المرعبة للسحرة والساحرات، وكل

---

(٦٤) **دافيد كوساندي، سر الغرب، نحو نظرية عامة للتقدم العلمي**، باريس، فلاماريون، ٢٠٠٧م.

Cf. David Cosandey, Le Secret de l'Occident. Vers une théorie générale du progrès scientifique, Paris, Flammarion, 2007.

(٦٥) باريس، **معهد الدراسات الأوغسطينية**، ٢٠٠٢م.

نبوءات المصائب المتعلقة بالخسوفات المتتالية للقمر التي حدثت للتو في مملكته، منعها، من أن ترهب عقول مواطنيه حتى إنها تمنعهم من متابعة نشاطاتهم وتقودهم إلى التمرد. إن التخطيط للمستقبل والتطور كانا منذ زمن محط اهتمام رئيسي لرجال السلطة، سياسيين كانوا أو دينيين. وبعد أن ذكر الملك المهمات التي تقع على عاتقه وترهقه لإحلال السلام، وهي التشريعات والحرص على الحدود على وجه الخصوص، أورد وصفاً دقيقاً [٣٤] وعلمياً للخسوفات. لقد كان يثق بالمعرفة، ويأخذ في الحسبان محدوديتها ليُطمْئن مواطنيه، ليحفز نموهم الثقافي والاقتصادي في آن معاً. وقد كان على المواطنين، شأنهم شأن أميرهم، أن يتابعوا نشاطاتهم الخاصة سواء كانوا مزارعين أو رعاة أو صيادين، أو حرفيين ... إلخ. من أجل خير المملكة وازدهارها. تلك كانت الطريقة التي أُرسي بها منذئذ ضرب من خيبة أمل العالم. لم يكن بالإمكان ترك الرؤية الكارثية المرتبطة بمفهوم ميتافيزيقي للطبيعة، تركه، يعرقل النمو الطبيعي للبلد.

كان ذلك في العصر الذي سُمِّي عصر "النهضة" مع تدفق المعارف الجديدة القادمة من الشرق، مع تقدم تنقل البشر والسلع، ومع التوطد المتزامن للأقطاب السياسية والثقافية المختلفة، ومع التشكيك، وإن كان بحذر، بالمعتقدات القائمة، ومع اكتشاف أراض جديدة وبشر جدد، حتى أن الله والطبيعة والحقيقة والإنسان أصبحوا مشكلات، بل جُعِلوا مشكلة. وأوليت التجربة والموضوعية من الآن فصاعداً أهمية أساسية، ولم يعد هناك إله هو في أصل أي حقيقة. وبذلك تجرأ في عام ١٤٨٢م العالم الإنسي **جيوفاني بيكو دلا ميراندولا**[٦٦] Giovanni pico della Mirandola في كتابه الرائع المعنون: **خطاب في كرامة الإنسان**، تجرأ، على أن ينسب إلى الله خالق العالم، الرغبة في أن يكون هناك "أحد لكي يُعجب بالسبب الذي كان وراء مثل ذلك الخلق، ولكي يحب جماله ولكي يفتن بعظمته"، ينسب إليه ما يلي:

---

(٦٦) ذكرت المؤلفة اسمه الفرنسي *Pic de la Mirandola*= **بيك دولا ميراندول**(١٤٦٣ - ١٤٩٤م) فيلسوف ولاهوتي **إيطالي** ذو نزعة إنسانية. وعنوان كتابه: *Discours de la dignité de l'homme (1486)*, [المترجم].

لم أمنحك مكاناً محدداً، ولا سحنة خاصة، ولا هبة تخصك وحدك، يا آدم، لكي يكون لك مكانك وسحنتك وهبتك التي تريد، ينبغي أن تكسبها بنفسك وأن تأخذها غلابا. تحتوي الطبيعة على أنواع أخرى من المخلوقات تسير على قوانين أنا واضعها. ولكنك أنت، يا من لا يحدك حد، تحدد نفسك بنفسك عبر حرية الاختيار التي أوكلتك إليها. لقد وضعتك في مركز العالم لكي تحسن تأمل ما يحتويه العالم من حولك. لم أجعلك لا أرضياً ولا سماوياً، ولا فانياً ولا خالداً لكي تضع بحرية اللمسات الأخيرة على شكلك على طريقة رسام أو نحات لأنك سيد نفسك. سيمكنك أن تتحول إلى أشكال دنيا، كأشكال الحيوانات، أو أن تتجدد فتبلغ الأشكال السامية البديعة.

ما الذي يريد العالم ذو النزعة الإنسانية أن يدلنا عليه هنا؟ إننا نجده، وهو يسبغ سمة دينية على حكايته، يقلب النص المقدس بأن يقر للإنسان بحرية مطلقة، فقد جعل آدم خالق نفسه عبر خالق كل شيء، وهو نفسه مصدر القوانين التي تخصه. لا تمنعه أي سلطة أو أي قوة عليا من أن يندفع وراء الصفات الإلهية التي هي بلا شك أن يكون عليماً من جهة وقديراً من جهة أخرى. إن كرامة الإنسان تكمن في أنه لا يوجد فيما يخصه شيء نهائي، وأن وجوده مرتبط بمراقبته العالم وبعمله، يستطيع وهو يراقب معنى الكون وموارده "أن يضع بحرية اللمسة الأخيرة على شكله". يمكن أن يكون لطريقة استخدامه للعالم نتائج متعارضة: يمكن أن يأخذه إلى "أشكال سامية، سماوية" أو إلى "أشكال دنيا كأشكال الحيوانات"، أي إلى الغريزة والحتمية. إن الفضيلة والفن اللذين هما من سمات الإنسان، واللذين لا يخضعان لا للحساب ولا للقياس تُكْسِبَان، والحالة هذه، الإنسان على الدوام ميزة التقدم بعيداً في إنجاز شكله الخاص به. إن ما يهم هو المستقبل، هو الصيرورة، هو الانفتاح. إن محرك التاريخ وتطور الأشكال هو الحرية بالتأكيد، ولكنه أيضاً القلق الذي يرافقها بالضرورة: " سيمكنك أن تتحول...". نلاحظ، ويبدو لنا أن هذا جوهري، أنه إذا كان آدم الذي يخاطبه الله بضمير المفرد "أنت" مدعواً إلى أن يضع بحرية اللمسة الأخيرة على شكله الخاص به،

المفرد، فإنه أيضاً تُرك له خيار تعاقبي بالولوج إما إلى أشكال دنيا وإما إلى أشكال سامية بالجمع، كما لو أن الله يعرب عن رضاه عن الواقع المتعدد لانتماءات آدم بوصفه كائناً بشرياً. إن الرسام [٣٥] والنحات هما في الواقع مبتدعا أشكال، تتجدد على الدوام، وتُجدد على الدوام، متعددة، لا يمكن التكهن بها، مستبعدة الحدوث. حينئذٍ فتحت النهضة الأبواب على مصراعيها أمام ازدهار العلم.

في بداية القرن السابع عشر الميلادي كان عالم الفيزياء **غاليلي** Gallilée هو الذي خيب بامتياز أمل العالم بفضل ملاحظاته وحساباته. ففي كتابه **حوار حول نظامي العالم**(٦٧)، وهو كتاب أُحْرق في روما عام ١٦٣٣م أورد على لسان ممثليه في مواجهة القدماء: **الكون مكتوب بلغة الرياضيات**، وأورد على لسانهم أيضاً: **إنه لمن النبيل والرائع للأرض أن تكون مسرحاً للتغيير**. ليس هناك على ظهر البسيطة ما هو عصي على التغيير، وليس النبل في الثبات والتفرد. لم يعد هناك تمييز بين السماء والأرض. ليس لله مكان، والإنسان يعيش في وسط النجوم. ويطرح **غاليلي** الشروط الأونطولوجية لتساوي الأحياء: كل شيء طبيعي أو ثقافي يمكن أن يعالج ويفسر حسب المبادئ الرياضية. وفي عام ١٦٣٧م التزم **ديكارت** Descartes جانب الحذر وهو يعالج ظواهر الثلج والبرَد والرعد وقوس قزح، ويرفقها **بخطاب عن المنهج** لحسن قيادة عقله، والبحث عن الحقيقة في العلوم، بسبب المحاكمة التي كانت تعقد حينئذٍ **لغاليلي**، فقال إنه يود على وجه الخصوص أن يضع عقله وأناه المدركة في خدمة القوة البشرية، ويسهم بذلك عبر "العقل" بجعل الحياة على الأرض أطول وأكثر أمناً. وكان حكمته المأثورة الأولى: **لا ينبغي ألبتة تقبّل أي شيء على أنه صحيح إلا إذا عرفت حقاً أنه كذلك.**

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين أراد عالم الرياضيات والمختص بوصف الكون **بيدرو ميكسيا** Pedro Mexia الذي كان يسكن في مدينة **إشبيليا**

---

(٦٧) *Dialogue sur les deux systèmes du monde*.

أن يعرض في كتابه الرائع دروساً متنوعة[٦٨]، الذي ترجم إلى كل اللغات الأوربية، الحاصل الكلي لمعارف عصره. وتمثل النشاط الأساسي لمكسيا في وصف الأرض والبحار والرياح لكي يسمح للبحارة ببلوغ القارة الأمريكية في أحسن الشروط الممكنة. يقارن نفسه في كتابه بالنحلة التي تجني الرحيق وتصنع عسلها، إنه يجمل كل المعارف لكي يستطيع عند الاقتضاء الإعلان عن توصية أو حكم. وبعد حين في عام ١٧٠٤م تحدى الإنجليزي جوناثان سويفت[٦٩] Jonathan Swift ديكارت عندما أورد[٧٠]: **سرداً كاملاً وحقيقياً للمعركة التي دارت رحاها يوم الجمعة الماضي بين كتب القدماء وكتب المحدثين في مكتبة القديس جيمس**، ورفض الخضوع بالبداهة العمياء "للصور الواضحة والمميزة". لقد تبنى سويفت إرث كل الكتب مهما كان نوعها، كما تبنى تأسيس فضاء من الفكر والنقاش بين اليقين والخطأ كما هي حالة مجمل المعارف الإنسانية. ألا يمكن للفكر الديكارتي أن يكون في واقع الأمر عرضة لخطر صورة تسير في خط مستقيم خالص، وتقتنص تقدماً لا يمكن تحديد معالمه "لعقل" عاجز عن أن يأخذ في الحسبان واقع العالم والبشر؟ إن الوضع الإشكالي الحاصل، وهو وضع لا يمكن وقف مسيرته، يعبر بوضوح عن ضرورة حصول تمييز مفتوح على أحوال عدم اليقين؛ لا ينبغي ألبتة لأي أنا أن تفقد صوابها معتقدة أنها "العقل". يشير سويفت إلى أهمية هذه التعددية في الشروط الداخلية والخارجية لأي شكل من أشكال التطور.

---

(٦٨) *Diverses Leçons*.

(٦٩) **جوناثان سويفت** (١٦٦٧ - ١٧٤٥م): أديب وسياسي إنكليزي - إيرلندي، اشتهر بمؤلفاته الساخرة المنتقدة لعيوب المجتمع البريطاني في أيامه وللسلطة البريطانية في إيرلندا. أهم مؤلفاته وأشهرها "رحلات جلفر" أو غوليفر الذي نشره عام ١٧٢٦م في أربعة كتب تصف أربع رحلات خيالية إلى بلدان نائية غريبة تمثل كل واحدة منها حيثية للمجتمع البريطاني. ومن مؤلفاته المشهورة الأخرى مؤلف اقتبست منه مؤلفة الكتاب نصاً هو كتاب: حرب الكتب *Battle of the Books* ١٧٠٤م. [المترجم]

(٧٠) في كتابه حرب الكتب المذكور في الحاشية السابقة. [المترجم]

وفي القرن العشرين ترافق التطور الرائع والخارق للعلوم والتقنيات بقدرة باهرة على الاختراع وتطوير الحياة والقدرات التي هي في كل يوم أكثر ضخامة على التدمير والموت. تزداد المعرفة والجهل. والتقنية تسمح بالأسوأ أو بالأفضل. والعقل يدعي أنه أداة، ويزعم أنه إلهي المصدر، إنه يبدد شمل كل المتناقضات وكل الشكوك. وتوضح الفيلسوفة حنة أرنت[٧١] Hannah Arendt بدقة في: **إيشمان في القدس – تقرير عن تفاهة الشر**[٧٢] كيف يمكن لذلك العقل الأداة والتقني الذي يفضي هنا إلى إبادة النازيين لليهود، كيف يمكنه عندما يفصل نفسه عن العالم فصلاً كلياً، وينعزل عنه أن يؤدي إلى ظهور العقل الذي يعد نفسه مالك العالم، ويرفض اقتسام الأرض، وأن يأخذ في الحسبان تعددية انتماءات البشر الذين يسكنونها ويقتسمون بالطبع مواردها الطبيعية. [٣٦] وإن حكم الفيلسوفة لا يقبل النقض عندما تتوجه بالحديث إلى المتهم **إيشمان**:

لأنك ناصرت ونفذت سياسة تتمثل في رفض اقتسام الأرض مع الشعب اليهودي وعدد من الشعوب من أمم أخرى، كما لو أنك ورؤساءك تملكون حق تقرير من ينبغي أن يسكن هذا الكوكب ومن لا ينبغي له ذلك. إننا نقدر أن أي أحد، كائنا بشرياً كان أو غيره، لا يرغب في اقتسام الكوكب معك. لهذا السبب، ولهذا السبب وحده ينبغي أن يكون جزاؤك حبل المشنقة.

إن تطور العقل التقني وحده، وإلغاء أي تبعية وتفاعلية بين الطبيعة والثقافة، أي علاقة مع التاريخ، وبالتالي رفض أن تؤخذ في الحسبان أي أنماط أخرى من العقلانية، يفضي إلى اتخاذ قرارات دكتاتورية وإجرامية. إن حنة أرنت تتحدث باسم إنسانية "دنيوية". هنا يتراءى بوضوح خطر الدكتاتورية في حكومة عالمية قائمة على عقلانية تقنية خالصة، ترفض أن تأخذ في الحسبان الطبيعة المعقدة لانسجام الإنسان والعالم، وتعدد الانتماءات والثقافات وكل الفوارق الطفيفة التي تنتج عنها. تلك

---

(٧١) حنة أرنت (١٩٠٦ – ١٩٧٥م) منظرة سياسية وباحثة يهودية من أصل ألماني. [المترجم]

(٧٢) *Eichmann à Jérusalem. Rapport sur la banalité du mal*.

الحكومة تجعل لنفسها حكماً إلهي المصدر. وتظل الفيلسوفة على الرغم من ذلك واثقة عندما تعلن في كتابها **أزمة الثقافة**[٧٣]: **بما أن أمور الطبيعة أبدية الوجود فإنها غير معرضة لخطر التجاهل أو النسيان.** ولكي تبرز "تجارة الإنسان مع الطبيعة، تلك التجارة التي هي الثقافة" تختار الفيلسوفة الاستشهاد بفقرة لأرسطو من **كتابه بحث في الروح**[٧٤]: **إن الكينونة بالنسبة إلى المخلوقات الحية هي الحياة**[٧٥] لقد أعطانا التاريخ مع النازية درساً ناجعاً، متطرفاً ومريعاً. إن التنمية هي في جانب كون العالم والحياة مركبين، وفي جانب آخر انتقال البشر والمعارف. إنها نبع لا ينضب من التطور. تلك هي واحدة من النتائج التي انتهى إليها الكتاب التاريخي المهم المخصص **لأمكنة المعرفة**، بإشراف **كريستيان جاكوب**[٧٦] Christian Jacob: لم تكد الإمبراطوريات التي انحصرت في جنس واحد تنجح في تحقيق ازدهار العلوم والتقنيات والأفكار على الدوام: ينبغي لكل حيوية في التجديد أن تنتظم حول عدد من مراكز الاستقطاب التي تتنافس ويخصب بعضها بعضاً في رحاب الفضاء نفسه.

أليس رفض اقتسام العالم، رفض اقتسام روح العالم وموارده هو ما يشير إليه بالتحديد **مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية** (CNUCED) في تقريره عن "البلدان الأقل تقدماً" المنشور في السابع عشر من يوليو"تموز" ٢٠٠٨م؟ لقد تأكد لدى ذلك المؤتمر إخفاق التنمية في خمسين دولة هي أكثر دول الكوكب فقراً، غالبتها تقع في **إفريقيا**، وأغلبها من كبار الدول المنتجة للبترول والمعادن، ولكن هذا لا ينعكس على وسطي نموها المعلن بنسبة ٦,٧٪. وإن تزايد عمليات تصدير المواد الأولية النادرة لا يسمح في واقع الأمر إلا بإثراء شريحة ضيقة جداً من شرائح المجتمع. أما غالبية الشعب

---

(٧٣) *La Crise de la culture, traduction française P. Lévy, Gallimard, 1972, 1989.*

(٧٤) *Traité de l'âme.*

(٧٥) حنة أرنت، **أزمة الثقافة**، باريس، غاليمار – فوليو، ١٩٧٢م.
Hannah Arendt, La Crise de la culture, Paris, Gallimard - Folio, 1972.

(٧٦) كريستيان جاكوب(إشراف)، **أمكنة المعرفة**، مج١، فضاءات ومجتمعات، باريس، ألبان ميشيل، ٢٠٠٧م.
Christian Jacop(dir.), Lieux de savoir, t.1, Espaces et communautés, Paris, Albin Michel, 2007.

التي تعيش من عوائد الزراعة فإنها تجد نفسها محرومة من تلك العوائد. كما أن نسبة تزايد السكان المرتفعة جداً تجعل مقاومة عدم المساواة أمراً في غاية الصعوبة. أما مساعدات التنمية فينبغي من الآن فصاعداً حسب **مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية** أن "تتمثل في بناء البنية التحتية من أجل ناتج وطني"، ولا ينبغي أن تنصب على المستشفيات والمدارس فقط. إن ما ينبغي إرساء أسسه هو في واقع الأمر إدارة أفضل لتوزيع موارد العالم النادرة، وهي إدارة من المناسب أن تُرْسى أسسها بمساعدة "البلاد الأقل تقدماً" على أن يكون لها سياسة أكثر اتساقاً في "تملك" عناصر الكون الأربعة.

حينئذٍ، هل يتبدل التمايز بين الطبيعة والثقافة، كما أزيل من قبل الفارق بين التاريخ الدنيوي والتاريخ المقدس؟ إن الفعل البشري، "تجارة الإنسان مع الطبيعة التي هي الثقافة" ينصب من الآن فصاعداً على الشأن الكوني كما يفصح عن ذلك ببراعة **ميشيل سيريس**[٧٧] Michel Serres:

[٣٧] إننا نتحول من طبيعيين، منفعلين، أي من منغمسين سلبيين في طبيعة تعني مجموع ما يولد وما سيولد بغض النظر عنا، نتحول، إلى طبيعيين فاعلين، مهندسين وعمال فاعلين في تلك الطبيعة. فيما مضى قال سبينوزا: إن الله هو علة ذاته:

---

(٧٧) **ميشيل سيريس، أومينيسانس**، باريس، لوبوميه، ٢٠٠١م. لوعنوان الكتاب مصطلح افترعه سيريس لوصف مستقبل الإنسان؛ كما أن مصطلح المراهقة *adolescence* يحدد مرحلة العبور من الطفولة إلى سن البلوغ، وكما أن مصطلح *luminescence* يعني اللحظة التي يصبح فيها جسد مظلم مضيئاً. وبعد أن أخذ المؤلف في الحسبان الاضطرابات الجذرية التي شهدتها البشرية في السنوات الخمسين الأخيرة بدأ في تحليل العلاقات الجديدة التي نشأت بين الإنسان ومجالات متنوعة هي: الموت، جسد الإنسان، الزراعة، شبكات الاتصال الجديدة. يحذرنا المؤلف من نتائج تلك التحولات، وعلى وجه الخصوص من الخطر المتمثل في تعاظم عدم المساواة بين الدول الغنية والفقيرة. ويختم كتابه بتفاؤل مشيراً إلى أن الإنسان عرف على الدوام كيف يتكيف مع البيئات الجديدة، وأن الاختراعات العظيمة (الكتابة، الطباعة) حفزته ليثبت براعته وذكاءه. وقد كتبت المؤلفة المصطلح بالجمع: *Hominessences*. والصواب بالإفراد كما أثبتناه. المترجم.

Michel Serres, Hominessence, Paris, Le Pommier, 2001.

لقد حدث بذاته لأنه لا يمكن التفكير بأن أي مخلوق أعلى منه. إننا نستغل هذه الصفة التي كانت فيما مضى إلهية لنقول: إننا اليوم السبب العملياتي لحياتنا.

بهذه الطريقة تحولت الإنسية المجردة إلى نزعة ملموسة. لم يعد بالإمكان تمييز حياتنا من حياة العالم ومن عناصره الأربعة المكونة، وإن تحولنا المتدرج الطبيعي يفرض نفسه مقابلاً لتحول العالم المتدرج. إن ما هو كوني هو المتعدد والمتشابك، إنه اجتماع الأصل والطبيعة لكل الكائنات البشرية بتنوعاتها. ما يزال علينا أن نتم كل شيء، من التكاثر الطبيعي للأشياء حتى إنتاج الحاجات بالإسهام في قوى التعاون والتضامن. ولكن أليس في ذلك أي خطر؟ أي مكانة يحتلها من الآن فصاعداً الإنسان بين العناصر الأربعة المكونة للعالم، وأي مكان يخصصه الإنسان للماء والهواء والأرض والنار، كيف يمكن للعناصر الأربعة أن توجه قرارات سياسية، وعلى وجه الخصوص سياسة بيئية، سياسة "توافقية"؟، يلاحظ **فرانسوا داغونيه**[٧٨] François Dagognet في هذا الصدد:

من الآن فصاعداً سننشئ الطبيعة ونوجدها. الفعل يحل محل الكينونة. تصبح الطبيعة ما نبتدعه أكثر مما هي ما نكتشفه. العالِم يمنح القوانين وجوداً مادياً. وينتج عن ذلك أجساد وصناعات لولاه لم يكن لها أن تكون ألبتة. إذا كان عالم البيولوجيا يعيد برمجة الأحياء، فعالم الفيزياء لا يقل عنه في تغيير أكثر العناصر تعقيداً وأكثرها ثباتاً. المَخْبَر يُبْدِع، ولا يتأمل[٧٩].

أليس الإنسان غالباً هو ذلك الساحر المبتدئ الذي يحرك آليات يعجز عن مراقبتها والسيطرة عليها؟ ينبغي على التقدم الذي تم إحرازه أن يتجدد على الدوام، ولن يستطيع الفعل أن يحل محل الكينونة، ومحل حركة الحياة. ويبدأ **هانس جوناس**[٨٠] Hans Jonas كتابه **مبدأ المسؤولية** كما يلي:

---

(٧٨) فيلسوف فرنسي على قيد الحياة، ولد عام ١٩٢٤م. [المترجم]

(٧٩) **فرانسوا داغونيه، تأملات في فكرة الطبيعة**، باريس، فران، ٢٠٠٠م.

François Dagognet, Considérations sur l'idé de la nature, Paris, vrin, 2000.

(٨٠) مؤرخ وفيلسوف ألماني(١٩٠٣ - ١٩٩٣م).

إن البروميثيوسية التي انفك عنها القيد كلياً، البروميثيوسية التي يخصها العلم بقوى لم نشهد لها من قبل مثيلاً، ويدعمها الاقتصاد بنبضه الجامح تستدعي قانوناً أخلاقياً يمنع سلطة الإنسان عبر قيود تتم الموافقة عليها بحرية، يمنعها، من أن تصبح وبالاً عليه[٨١].

إذا كان الإنسان يريد أن يعيش فإن عليه أن يعرف كيف يحد من الجرأة والحرية اللتين صنعتا وتصنعان عظمته و"كرامته". إن عليه أن يكون مثل إيكار Icare، أن يقترب من الشمس الملتهبة بحذر، وإلا فإنه يتعرض لخطر السقوط في أثناء طيرانه[٨٢]. وينبغي على برميثيوس، سارق النار، أن يبتدع قانوناً أخلاقياً. وينبغي على الإنسان، على وجه السرعة، أن يجد في نفسه القوة "الأخلاقية" لأن يكبح جماح نفسه، أي أن يجتمع بأخيه الإنسان، وأن يتضامن معه. ولا يمكن لعناصر الكون الأربعة أن تكون بمثابة أوهام. وربما تكمن مسؤولية الإنسان في أنه قادر على دفع حيوية تفكير وفعل تفسح مجالاً واسعاً لتنوع الأنماط، ولفعل المقارنة، ولتاريخ مصغر يهتم بالدراسات التي تنصب على الحالة أكثر مما تنصب على إنشاء الأنماط الكونية. سيستطيع الإنسان الاستمرار في العيش عبر التملك المسئول لعناصر الكون الأربعة.

---

(٨١) **هانس جوناس، مبدأ المسؤولية**، باريس، سيرف، ١٩٩٢م، ص١٣.
Hans Jonas, Le Principe Responsabilité, Paris, Cerf, 1992, p.13.

(٨٢) تتحدث المؤلفة عن الأسطورة الإغريقية **إيكار بن ديدال** Icare fils de Dédale المهندس المعماري من جارية من جزيرة **كريت** اسمها نوباكتي Naupacté، وكان الابن والأب يحاولان العودة إلى **أثينا** مسقط رأس الأب، والهرب من **مينوس** Minos إله البر والبحر، ولما لم يكونا يستطيعان الهرب عبر البحر أو البر خطرت لديدال فكرة صنع جناحين مثل أجنحة العصافير وتثبيتها بالشمع والرصاص، ولكنه حذر ولده من الاقتراب من البحر بسبب الرطوبة ومن الشمس بسبب الحرارة. ولكن الولد وقد اعترته نشوة الطيران اقترب من الشمس فذاب الشمع وسقطت الأجنحة وسقط في البحر ومات. [المترجم]

٤- الشرعة الأخلاقية والسياسة

IV. L'éthique environnementale et la politique

أشارت المسألة التي يعود تاريخ ظهورها إلى ثلاثين سنة خلت تقريباً تحت مسمى علم البيئة "الإيكولوجيا" إلى مسؤولية الجميع عن الأرض، التي لا ينحصر معناها في هذا السياق الضيق [٣٨] في المفهوم الجغرافي، ولكن في اندراجها ضمن الكون. إن القلق البيئي هو من الآن فصاعداً ما يستنفر البشر أفراداً وجماعات.

أما التفكير في ندرة الموارد الطبيعية فهو حديث؛ إذ لا يعود ذلك إلى أبعد من عام ١٩٧٠م عندما فكر بعض علماء الاقتصاد "أن العملية الاقتصادية ليست إلا امتداداً للتطور البيولوجي"[٨٣]. وبذلك نما قانون أخلاقي للبيئة انتظم في تيارين رئيسيين. الأول يعد أن هناك قيماً جوهرية لكل كائن حي. والثاني يتساوق مع قانون أخلاقي يسمى المركزية البيئية، وهو قانون أخلاقي يقوم على الممارسات الجيدة والتصرفات الحسنة في الطبيعة: والمقصود هو إدماج النشاطات البشرية في البيئة مع الاستجابة لتعددية الأحياء. وتلتقي تلك الأخلاقيات البيئية مع التقاليد القديمة الرمزية والأخلاقية.

وتقوم الأفكار والآراء المتعلقة بقانون الأخلاق البيئي على ملاحظتين أساسيتين. فمن جانب نجد أن نفع ثروات الطبيعة (المواد الأولية، المنتجات الزراعية، ... إلخ) يظهر في طريقة استهلاكها، ويفرض المحافظة عليها. وآية ذلك أننا، وبسرعة، لن نستطيع الوصول إلى موارد الاستهلاك في غياب الخدمات البيئية التي تقدمها الطبيعة نفسها. ومن جهة أخرى يمكن للطبيعة أن تمثل منفعة جمالية أو أخلاقية أو روحية أو علمية للبشر، والرضا الذي توفره يتطلب حينئذٍ أن تظل معافاة، ويكون لها والحالة هذه قيمة تتجاوز كل القيم المعروفة التي يبرهن على وجودها عقلياً. إذنْ لن يكون بالإمكان أن تخضع الطبيعة للرغبات البشرية المفضلة. كذلك عرف الفيلسوف وعالم السياسة

---

(٨٣) نذكر على سبيل المثال نيكولاس جيورجيسكو - رويجان في محاولته، قانون القصور الحراري والعملية الاقتصادية، ١٩٧١م.

Par exemple, Nicholas Georgescu - Roegen dans son essai, The Entropy Law and the Economic Process, 1971.

الأمريكي بريان ج. نورتون[٨٤] Bryan G. Norton قانوناً أخلاقياً "بيئياً وحيوانياً" ليس مركزياً بشرياً، أو بقول أكثر صحة "ذو مركزية بشرية ضعيفة". وها نحن نقتبس هنا مظاهره الأساسية:

إن المركزية البشرية الضعيفة تيسر وجود موردين أخلاقيين ذوي أهمية فائقة لأنصار البيئة. أولهما أن مشرِّعي البيئة الأخلاقيين الذين يستطيعون تسويغ صوابية رؤية للعالم تضع في مركز منظوره العلاقة الوثيقة بين النوع البشري والأنواع الحية الأخرى، يستطيعون في الحد نفسه أن يسوغوا صوابية تلك المواقف البشرية المثالية التي تتمثل في العيش المتناغم مع الطبيعة. يمكن لمثل تلك المثاليات منذئذ أن تستخدم حدوداً مرجعية لكي تُخضع للنقد الأفضليات التي تميل إلى الارتباط بالطبيعة من منطلق الاستغلال.

وثانيهما أن المركزية البشرية الضعيفة... مدفوعة إلى أن تأخذ في الحسبان المكانة التي تحتلها التجارب التي تكتسبها الكائنات البشرية عن عناصر الطبيعية وعن ارتباطها بأماكن محمية في سيرورة تشكل القيم.

حينئذٍ يفترض نورثون أنه:

أن الطبيعة تتعهد القيم عندما تتعهد مهمة تعليم الكائنات البشرية ما يتعلق بتلك القيم، حتى إن أنصار البيئة يصلون إلى حد إظهار أنها تتشكل وهي مطلعة على واقعة اتصال الكائنات البشرية مع الطبيعة[٨٥].

---

(٨٤) بريان ج. نورتون: فيلسوف أمريكي معاصر، أستاذ الفلسفة في معهد جورجيا للتكنولوجيا. من مؤلفاته: الأطر اللغوية وعلم الوجود، *Linguistic Frameworks and Ontology* لماذا الحفاظ على تنوع طبيعي؟ *Why Preserve Natural Variety* ونحو الوحدة بين دعاة الحفاظ على البيئة، *Toward Unity among Environmentalists* ومحرر كتاب: المحافظة على الأنواع *Preservation of Species*. [المترجم]

(٨٥) بريان ج. نورثون، "القانون الأخلاقي البيئي والمركزية البشرية الضعيفة"، في القانون الأخلاقي للبيئة، هـ - س. أفيسا (ناشر)، باريس، فران، ٢٠٠٧م، ص٢٥٥ - ٢٥٦.

Bryan G. Norton, "L' éthique environnementale et l' anthropocentrisme faible", dans Éthique de l' environnement, H. - s. Afeissa (éd.), Paris, Vrin, 2007, p. 255 - 256.

إن هذه القيمة الأخيرة التي يسميها **نورثون** "قيمة تحويلية" هي قيمة قادرة على إحداث تحول في الأفضليات بالتوافق مع مثال أكثر سمواً. إن للقيم الطبيعية تعددية جوهرية، وتتحول من قيم مجتمع الاستهلاك إلى [٣٩] قيم جمالية وروحية، ... إلخ.

ينبغي أن تكون مهمة نصير البيئة السعي إلى تحديد برنامج سياسة بيئية تسمح بأفضل اندماج للمجموعة الكاملة للقيم الطبيعية حسب اتجاه يوصف بأنه "نفعي". ذلك المثال يمكن أن نقربه من "الحياة" بالمعنى الذي يعتمده الفكر الصيني أو كبار متصوفي الأديان التوحيدية. كما دللنا على ذلك فيما سبق. ومن هنا تأتي، كما يقول **نورثون** في كتابه الذي ظهر عام ٢٠٠٥م بعنوان: **الديمومة. الفلسفة الإدارية لتبني النظام البيئي**[٨٦] في الإجابة عن الأسئلة التي طرحت في **مؤتمر الأرض** الذي انعقد في **جوهانسبرغ** عام ٢٠٠٢م، أهمية تحديد شروط التنمية المستدامة وأهمية الدفاع عن "مبدأ ديمومة الأنظمة البيئية".

ويرى **نورثون** بالاتفاق مع أبرز منظري الاستدامة أنه ينبغي أن تطرح مشكلة الشروط الأخلاقية المقبولة للتنمية المستدامة في إطار نظرية العدالة بين الأجيال، وأنه من المناسب تحديد الالتزامات المفروضة علينا تجاه أجيال المستقبل. ويرى **نورثون** أن هناك نموذجين رئيسيين للاستدامة، وإنه لمن الأهمية بمكان أن نصل بينهما. يرى **النموذج الأول** أن المقصود هو أن يُنقل من جيل إلى جيل مستوى الإمكانيات نفسه، وتشكيلة عادلة من الفرص؛ لأن من المستحيل بلا شك أن نضيّق أو نراقب نمط استخدام البيئة، وتخزين الموارد. ينبغي أن يعترف كل جيل أنه ملزم أخلاقياً بأن يعوض الموارد التي استنفدتها التنمية والبيئة التي خربتها، يعوضها، بطاقة إنتاج معادلة لما فعله. ويرى **النموذج الثاني** أنه من الموصى به إنشاء قائمة بكل "الموارد"، أي بأي مظهر من مظاهر العالم الطبيعي الذي يمكن وصفه فيزيائياً، سواء كانت موارد طبيعية أو آليات ينبغي أن نتركها لأجيال المستقبل، ويكون من المناسب أن نلتزم باقتسامها معها.

---

(٨٦) *sustainability. A philosophy of Adaptative Ecosystem Management.*

يمكن على سبيل المثال أن تكون تلك "الموارد" كما يقول نورثون مخزونات كافية من الماء الصالح للشرب، لوغراند كانيون[٨٧]= المجرى الضخم، ونصيبهم من الدببة الشمط[٨٨]، وطبقة من الأوزون سليمة في القسم الأعلى من الغلاف الجوي، ويمكن أن تكون أيضاً مناظر طبيعية سليمة. تلك "المواد" ستكون حسب دراسة تصنيفية للمؤثرات "مالاً عاماً" لا يطالها مرور الزمن، كما لو أنها مؤشرات على سعادة مستقبلية، الشراب والطعام والتنفس، ... إلخ. إن مشكلة العدالة بين الأجيال إذا فُهمت على هذا المنوال يمكنها حينئذ أن تفضي إلى تحديد سمات النظام البيئي والمشهد اللذين هما جوهريان من أجل أن نحفظ في المستقبل القيم التي نحكم بأنها مهمة محلياً.

إن نظرية نورثون تسهم في توضيح الرابط بين الطبيعة والزراعة، بين عناصر العالم الأربعة والإنسان، وهي، والحالة هذه، تسهم في رفض الفصل الجذري بين الطبيعة والزراعة. وإن استخدام الموارد الطبيعية يشير إلى المنافع المادية التي نستمدها منها بقدر ما يشير إلى المتعة الجمالية أو العلمية المرتبطة بها. إن القيم الطبيعية هي قيم إنسانية. وإن تحديد "الموارد الطبيعية الأساسية" التي ينبغي حمايتها في اقتصاد محلي ينبغي إذنْ أن يأخذ في أعلى درجات الحسبان الممارسات الثقافية والمؤسسات؛ وإذا كانت الموارد الطبيعية هي التي تؤسس الهوية الثقافية فإننا نستطيع أيضاً التساؤل عما إذا كان سيُنظر إليها بوصفها موارد وقيماً بغض النظر عن التأويل والاستخدام الثقافي الذي تخضع له. إن مقاربة نورثون تميل إلى أن يترك لكل مجتمع محلي أمر تقرير ما يود نقله إلى أجيال المستقبل. إذنْ، إذا كان في الواقع يبدو أن الاحتفاظ بمغنم التنمية دون تحمل مغرم المشترك، بل المتفرد، المترافق باحترام الهويات، والفوارق والحدود، أمرٌ

---

(٨٧) *Le Grand Canyon*: حديقة وطنية تقع في الشمال الغربي لولاية أريزونا. وهو مجرى ضخم شقه نهر كولورادو في السهل الذي يحمل الاسم نفسه. تأسست الحديقة عام ١٩١٩م، وتبلغ مساحتها ٤٩٢٧متراً مربعاً. وصنفته اليونيسكو عام ١٩٧٩م إرثاً عالمياً للإنسانية. [المترجم]

(٨٨) *Les ours grizzly*: نوع من الدببة، يعد بمثابة "مهنس بيئي" لدوره في المحافظة على البيئة، وحفظ التوازن فيها. [المترجم]

أساسي، أليس من المهم أن يكون هناك تعريف كوني للاستدامة؟ هل مقاربة **نورثون** قابلة للتطبيق عندما يتعلق الأمر بحل المشكلات التي لا يمكن إرجاعها إلى مستوى محلي، وهي مشكلات تتطلب تعاوناً كبيراً بين المجتمعات، وبين البلاد، وبين القارات؟ لذلك نجد **نورثون** يمر مروراً سريعاً على مسألة الاحتباس [٤٠] المناخي الذي يتطلب بلا شك تأملاً في مفهوم "المجتمع الدولي" بوصفه "مجتمعاً عولمياً".

احتسب **برنامج الأمم المتحدة للتنمية** في الثمانينيات مؤشراً للتنمية البشرية يتمم حساب الناتج الإجمالي المحلي[٨٩] (PIB) بمعطيات اجتماعية. وقد تمت اليوم صياغة مقاييس بيئية، ولكن بجهود متفرقة؛ ليس هناك بعد "ناتج إجمالي بيولوجي" يقيس التواصل بين الإنتاج والبيئة. والسؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: هل ينبغي إيجاد منظمة عالمية للبيئة في مقابل **منظمة التجارة العالمية**؟ يلقي هذا الحوار بثقله بالطبع على القدرة التنافسية للشركات. وقد كان لمؤتمر الأرض في عام ٢٠٠٢م الفضل الكبير في تحديد هوية الأحداث الإشكالية، وتحديد أهداف كمية، ورسم مسارات لا يمكن الاستغناء عنها للتقدم. وكانت المرة الأولى التي أشير فيها بوضوح إلى دور الشركات في ذلك.

وفي عام ٢٠٠٢م قام الأمين العام السابق للأمم المتحدة **كوفي عنان** Kufi Annan بإطلاق النداء التالي: **لا ينبغي أن يكون الماء في العالم سبباً في النزاعات فحسب، ولكنه ينبغي أن يكون محفزاً من أجل التعاون.** وقد استقر لدى **جان هورست كيبلير** Jean Horst Keppler، مدير برنامج الطاقة في **المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية** (IFRI): **أن البلدان الغنية بالمواد الأولية غالباً ما يكون الوضع فيها من وجهة نظر سياسية مفرطاً في الهشاشة.** وإن ندرة الموارد، شأنها شأن غزارتها، يوجد نزعات أو يطيل أمدها، مع ظهور المنتفعين، وممارسات الفساد التي تعرض المجتمعات للخطر. لقد أحصت **منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين** (OCDE) سبعة عشر نزاعاً عنيفاً بين عاميْ ١٩٩٠م وعام ٢٠٠٢م دارت بسبب النزاع على استغلال الموارد الطبيعة. والحربان الكبيرتان اليوم في

---

(٨٩) مؤشر اقتصادي يستخدم على نطاق واسع لقياس مستوى إنتاج بلد ما. ويُعرَّف بأنه القيمة الإجمالية للإنتاج الداخلي للثروات والخدمات في بلد ما. [المترجم]

العراق والسودان مرتبطتان بمسألة الموارد الطبيعية، سواء تعلق الأمر بالبترول أو بالأراضي الصالحة للزراعة. ومسألة المياه تطرح نفسها بقوة في النزاع في الضفة الغربية، وفي لبنان أيضاً، وفي الأردن وفي سورية حول نهر الأردن، وفي فيتنام، وفي الصين، وفي كمبوديا حول نهر الميكونغ Mékong. وتكمن المفارقة في أن المياه يمكن أن تقود إلى تعاون دولي مهما بلغت درجة هشاشته، فهناك على سبيل المثال اتفاقية حول المياه بين الولايات المتحدة وكندا، وتستطيع الهند وباكستان معاً معالجة مسألة المياه. ومجرى النيل تتقاسمه عشر دول. إن ما هو سبب في التوترات هو أيضاً سبب في تعاون ضروري. وتتلقى برشلونة اليوم مياه شرب تأتي إليها على متن السفن من مدينة مرسيليا! وعندما طُلب من الخبراء الذين اجتمعوا في مدينة مونبلييه في المؤتمر العالمي الثالث عشر للمياه بين الأول والرابع من سبتمبر"أيلول" ٢٠٠٨م أن يذكروا مثالاً لنهر أو طبقة مياه جوفية عابر أو عابرة للحدود، تعالج مسألة اقتسامها معالجة واقعية ومتناغمة بين عدد من البلدان انتهى بهم الأمر إلى الحقيقة التالية: لا يوجد، ولكنهم أشاروا أيضاً إلى أن الموقعين على الاتفاقات التي تخص المياه العابرة للحدود يمكن أن يسمحوا، عبر تعاون ملموس، بتحسين علاقات دبلوماسية صعبة بين الجيران.

ألم نلحظ مؤخراً أن البترول والغاز الروسيين يشكلان سنداً قوياً للسياسة الخارجية الروسية؟ والحال أن خط أنابيب الغاز الذي هو قيد الإنشاء، الخط الذي سيجر البترول والغاز إلى أوروبا لمسافة حوالي ٣٠٠٠ كم يستقر في قسم كبير منه في قعر بحر البلطيق الذي ما زال قعره يعج بالألغام والمخلفات الكيميائية التي يعود تاريخها إلى الحرب العالمية الثانية. هذا من جانب، ومن جانب آخر إن إنتاج الطاقة "الخضراء" البيوكاربورانت biocarburants، بسبب ما أشيع من نضوب النفط يمكن أن يسهم في تعريض الكوكب لخطر المجاعة؛ إنه تحد جديد مطروح في وجه الزراعة. لذلك عانت المكسيك في عام ٢٠٠٧م من انخفاض مخزونات الذرة التي تصدرها الولايات المتحدة الأمريكية، لأن هذه الأخيرة خصصت في عام ٢٠٠٦م ٥٧ مليار طن من الذرة لإنتاج الإيثانول الذي يفترض أن يحل محل البترول. وفي الوقت نفسه، إن عوامل التعرية

في الأرض، ونضوب الماء العذب، وانتشار الفيروسات والحشرات، وتبدل العادات الغذائية، ... إلخ، كل ذلك ينذر بالأسوأ. وعلى الرغم من ذلك يشير المختصون بالمسائل الزراعية بتفاؤل إلى أنه [٤١] يمكن للبلدان النامية أن تحصل على زيادة وفيرة في الإنتاجية الزراعية. ينبغي أن يكون للزراعة دور في أن تخترع في كل مكان مستقبلاً مستمراً! هنا أيضاً يتعلق الأمر في أن نأخذ في الحسبان مجموعة كاملة من المخاطر الطبيعية والبشرية.

اعترف **البنك الدولي** في تقريره عن التنمية المنشور في أكتوبر ٢٠٠٧م أن ازدهار الزراعة الذي يفضي إلى انخفاض نسبة الفقر والجوع يرتبط بالاستثمارات العامة في البنية التحتية الريفية، مثل وسائل الري، والطرق والطاقة، واعترف البنك أيضاً بأن القائمين عليه كانوا قد نسوا الزراعة في سياستهم التي طبقوها منذ عشرين عاماً! إن الزراعة في دول الجنوب، وعلى وجه الخصوص في **آسيا الجنوبية وأفريقيا الجنوبية** ستكون واحداً من أكثر مجالات النشاط البشري تأثراً بالتغير المناخي الراهن. ولهذا السبب عادت الزراعة في غرة القرن الحادي والعشرين مشكلة رئيسية من مشكلات البشرية. وإنه لمن الدال في هذا السياق أن يتم تعيين عالم الاقتصاد الصيني، وصاحب المعرفة الواسعة بالتنمية الريفية **لين إيفو** Lin Yifu في فبراير "شباط" ٢٠٠٨م كبير اقتصاديي **البنك الدولي**.

إذا كانت القيم الطبيعية هي أيضاً قيم إنسانية فإن فرضية الهولندي **جيروين ديرفال** Jeroen Derwall توسع فرضية **نورثون** اتساعاً يركز على الجانب الاقتصادي: فالشركات الناشطة في مجال الإدارة البيئية على وجه الخصوص استطاعت أن تحقق أداء مالياً هو أفضل، مما حققته شركات أخرى هي أقل اهتماماً بالإدارة البيئية، خصوصاً إذا نظرنا إلى ذلك الأداء المالي على المدى البعيد[٩٠].

---

(٩٠) مقال ظهر في صحيفة "لوموند" الصادرة في ٢١ يناير "كانون الثاني: ٢٠٠٨م.

Article paru dans Le Monde du 21 janvier 2008.

ويشجع جهاز مالي، ترعاه الأمم المتحدة يُسمى **آلية التنمية النظيفة** (MDP) بناء مصانع نظيفة في البلاد النامية. فشركة **فيوليا** Veolia على سبيل المثال نفذت ذلك في **مصر** في المصانع التي تعالج النفايات في مدينة **الإسكندرية**. وبذلك يمكن للشركات أن تصبح جهات فاعلة في إصلاح البيئة، وإنه لمن المهم أن تشجع الحكومات على سلوك مثل هذه المسالك. وإن جانباً كبيراً من المستقبل البيئي للكوكب يتقرر تبعاً للتحول الاقتصادي الصيني بفضل التغيرات في السياسة الصينية. وتبدو التكنولوجيا البيئية شيئاً فشيئاً بوصفها سوانح صناعية رائعة. إن **وادي السيلكون**[٩١] Silicon Valley عندما يتركز اهتمامه على الطاقة الشمسية فإنه يأمل بذلك المحافظة لعدد كبير من السنوات القادمة على التفوق التكنولوجي على العالم. وبذلك تتجاوز العلاقات الجديدة بين البشر وعناصر الكون الأربعة الأساسية الخيال عبر إعادة تكييف البنى والسلوكيات حسب التعريف الواضح للأهداف. إن التجديد في مجال صيغ النمو الجديدة ينبغي أن يكون مسؤولية الجميع.

في عام ٢٠٠٦م، واستجابة لمبادرة مشتركة بين **فرنسا والسويد** على المضي قدماً في سياق بعض من تحليلات **نورثون**، وعلى وجه الخصوص مفهوم "القيم الطبيعية" الذي جاء به. القيم الطبيعية التي هي أيضاً "قيم إنسانية". ولكن بحثاً عن حلول يمكن للمجتمع الدولي أن يطبقها، عكف فريق عمل دولي على جلاء مفهوم "المنفعة العامة العالمية"، وعلى تحديد ماهية "المنافع العامة العالمية"، "وهي منافع أساسية للتنمية المستدامة من وجهة نظر محاربة الفقر، والمصلحة المشتركة لجميع بلدان الكوكب". ووقع الاختيار على ست مجالات ذات أولوية يحتوي كل منها على عدد من المنافع العامة: **مقاومة الأمراض المعدية، مواجهة الاحتباس الحراري، الاستقرار المالي العالمي، النظام التجاري العالمي، السلام والأمن، وأخيراً المعرفة والبحث في المجالات**

---

(٩١) يشير مصطلح **وادي السيلكون** إلى مركز استقطاب الصناعات المتقدمة الواقع في خليج سان فرانسيسكو في كاليفورنيا في **الولايات المتحدة الأمريكية**. وحتى إن لم تكن المنطقة وادياً بالمعنى الحقيقي للكلمة فإن العبارة تشير مجازياً إلى مقر الصناعات التكنولوجية المتقدمة على وجه العموم. [المترجم]

السابقة كلها. والمقصود هو إيجاد آليات للإنتاج لا يقدمها السوق عفواً، على الأقل بالقدر الكافي. وشدد الفريق على الرابط بين تلك المنافع العامة العالمية والتنمية المستدامة، وتجنب صياغة توصيات بالغة الدقة ليُتخذ القرار على المستوى الدولي أو [٤٢] المحلي، وترافق ذلك بإطلاق مسألة الحافز السياسي الدولي الضروري لمواجهة التحديات الدولية الكبرى(٩٢).

لقد تم الإعلان في فرنسا عن مبدأ اتخاذ الاحتياطات بخصوص البيئة في قانون بارنييه Barnier في الثاني من فبراير"شباط" ١٩٩٥م بالصيغة التالية:

إذا أخذنا في الحسبان حالة المعارف العلمية والتقنية الراهنة فإن غياب الأمور المؤكدة لا ينبغي أن يؤخر تبني الإجراءات الملموسة المناسبة الرامية إلى تفادي خطر الأضرار الجسيمة التي لا يمكن تداركها على البيئة بتكلفة اقتصادية مقبولة.

تمارس من الآن فصاعداً ضغوطات كثيرة على الشركات، سواء تعلق الأمر بالقوانين الجديدة، وخصوصاً تلك التي أصبحت تعد اليوم قديمة، وأعني القوانين التي سُنَّت في شهر مايو"أيار" من عام ٢٠٠١م حول التنظيمات الاقتصادية الجديدة. أو بتعدد سجلات الاستثمارات الملتزمة اجتماعياً ومخصصاته. الاستثمارات الملتزمة أو التي تسمى "أخلاقية"، أو بالضغط الذي يمارسه المستهلكون أو المنظمات غير الحكومية (ONG).

تشير المادة الخامسة من الميثاق المتعلق بالبيئة، وهو ميثاق يعود إلى عام ٢٠٠٤م، وأدرج في الدستور الفرنسي متخذاً المرتبة نفسها التي اتخذها مدخل دستور السابع والعشرين من أكتوبر"تشرين الأول" عام ١٩٤٦م، وإعلان حقوق الإنسان والمواطن الذي أعلن في السادس والعشرين من أغسطس"آب" ١٧٨٩م:

---

(٩٢) تقرير فريق العمل الدولي حول المصالح العامة العالمية: **حل المشكلات العالمية، التعاون الدولي في إطار المصلحة الوطنية**، سنغافورة، ١٨ سبتمبر ٢٠٠٦م. إدارة سياسات التنمية، تعاليق يوم الخميس، رقم ٦١، ٢١ سبتمبر"أيلول" ٢٠٠٦م.

عندما يمكن لحصول ضرر ما، وإن كان غير أكيد في حدود حالة المعارف العلمية الراهنة، أن يؤثر في البيئة تأثيراً خطيراً ولا يمكن إصلاحه فإن السلطات العامة تحرص تطبيقاً لمبدأ الاحتياط المسبق، وفي الأراضي التابعة لها، على اتخاذ إجراءات لتقدير المخاطر وتبني الوسائل المؤقتة والتي تتناسب مع الحالة لكي تمنع وقوع الضرر.

ويأتي تدقيق الحالة في المادة السادسة:

ينبغي على السياسات العامة أن تشجع التنمية المستدامة. ولهذا الغرض، ينبغي عليها أن توفق بين حماية البيئة وإظهار أهميتها، وبين التنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعي.

وبهذه الطريقة تم الإعلان عن أن مبدأ التنمية المستدامة هو بنية ضرورية.

أما برونو ريبيلل Bruno Rebelle، المدير السابق لمنظمة غرينبيس فرنسا Greenpeace France فإنه يوجه بعنف:

لقد فهم عدد من المجتمعات في عام ٢٠٠٣م، منذ أن بدأ الإحساس بالمسؤولية يجد طريقه لدى الرأي العام أنها إذا لم تلتحق بركب التنمية المستدامة في طرق إنتاجها وفي إستراتيجية التواصل لديها فإنها تلقي بنفسها إلى التهلكة[٩٣].

إن اجتماع الضدين يتفوق غالباً. إن "**التواصل الأخضر**" الذي يسميه الأمريكيون أيضاً "**الغسل الأخضر** greenwashing" الذي يستخدمه الأمريكيون عبر تورية مع مصطلح "brainwashing= **غسل الدماغ**" يمكن أن يوجه لأهداف تجارية محضة، مثل الإعلان عن العلامات التجارية والمنتجات التي يُفترض أنها تسهم في التنمية المستدامة، ومن هنا جاء ارتفاع نسبة عدم الثقة في بعض الدعايات "الخضراء" في أذهان المستهلكين الذين وجدوا أنفسهم محصورين بين سندان التخوف من غلاء المواد الأولية ومطرقة الخوف من الاحتباس الحراري على سبيل المثال[٩٤].

---

(٩٣) ذكرت ذلك صحيفة ليزيكو(الأصداء)، ١١ يونيو"حزيران" ٢٠٠٨م.

(٩٤) إن الدعايات التي تستخدم الحجة البيئية ارتفعت نسبتها بزيادة ثلاثة أضعاف في عام ٢٠٠٧م، حسبما جاء في دراسة أعدها المكتب للتثبت من الدعاية.

[٤٣] ومهما يكن من أمر فإنه إذا كان دور النشاط البشري في التغير المناخي هو من الآن فصاعداً أمر لا يمكن إنكاره فإنه يبدو من الضروري أن تتمسك حكومات البلدان على الدوام بتطوير سياسات مشتركة. إن متطلبات **التنمية المستدامة** هي من الآن فصاعداً متطلبات "لا يمكن تجاهلها"، وإن كانت في بعض الأحايين يمكن أن تبدو مترافقة بخطر التطرف، أو أن تستخدم أداة لهدف ما. ففي فبراير"شباط" ٢٠٠٨م قدمت المحامية **كورين لوباج** Corinne Lepage إلى **وزير البيئة والطاقة والتنمية المستدامة والتخطيط العمراني، جان لويس بورلو** Jean - Luis Borloo تقريراً حول الحكومة البيئية، وقد أوصت في ذلك التقرير بإيجاد جنح يُطلق عليها اسم "جنوح بيئي" و"حجز استعلامي في المجال البيئي والصحي"، وإيجاد مسؤولية جزائية على رؤساء الشركات تتسع لتطال المتعهد الثانوي. وفي فرنسا أيضاً خصص المؤتمر الرابع بعد المئة لكتاب العدل الفرنسيين أعماله التي جرت بين ٤ و٧ مايو"أيار" ٢٠٠٨م لإشكالية التشريعات التي تشمل التنمية المستدامة. وفي الثاني والعشرين من يوليو"تموز" ٢٠٠٨م تبنى البرلمان تبنياً نهائياً، القرار النهائي لمجلس النواب باعتماد مشروع قانون حول "المسؤولية البيئية" (LRE)، وهو قانون يعكس عدداً من التوجهات الأوروبية القديمة، ويوطد على وجه الخصوص في الحقوق الفرنسية مبدأ الملوث/الدافع بأن يجعل له محتوى واضحاً. يهدف هذا النص إلى تفادي الأضرار التي تلحق بالطبيعة ومحاولة إصلاحها، الأضرار التي يسببها موقع أو نشاط صناعي. تستطيع الجمعيات الإقليمية من الآن فصاعداً أن تكون جانب ادعاء مدني في حالة تلوث الإقليم الذي تنشط فيه. أما حالات تلويث البحر فإنها تخضع لعقوبات أكثر صرامة، إذ إنه من المنصوص عليه أن يعاقب قبطان السفينة المسؤول عن رمي النفايات السامة في البحر بدفع غرامة مقدارها ١٥ مليون يورو، مقابل مليون واحد يدفعه اليوم، وأن يعاقب أيضاً بعقوبة السجن لعشر سنوات. وهناك عدد من التوجيهات الأوروبية التي أُدرجت في هذا النص، وخصوصاً التوجهات المتعلقة بالهواء وبطبقة الأوزون، وبالوضع الأوروبي المتعلق بانبعاثات **ثاني أوكسيد الكربون**.

لقد غصت مع دوامات الماء وصعدت مع تياراته، ذلك ما قاله الرجل *للحكيم كونفوشيوس* الذي انبجس من مسقط الماء. "الغوص مع دوامات المياه" و"الصعود مع التيارات": والمقصود أن نعرف كيف نستخلص درساً عملياً من هذه الاستعارة. فالعالم هو تقريباً جسد بيولوجي ينمو طبيعياً وعضوياً، وينبغي السهر على أن يتطور على طريقته المعقدة والمتنوعة دون أن نستنفد حيويته، ويتم ذلك بمعرفة إدارة إعادة توزيع عادلة لحيويته على أعضائه كلها حتى أقصى أطرافه. إن ديمومة الحياة البشرية وحياة المياه والهواء والأرض والنار مرتبط بالإبداع، وبالقدرة على التعاون، والتجديد، وبالتصرف كما كان يتصرف البشر في "البداية"، كما ترى **حنة أرنت**، من أجل استخدام عادل ومتعقل، بدون ضراوة، ولا احتكار للماء والهواء والأرض والنار في العالم. تلك هي الإستراتيجية القديمة التي ينبغي أن نحييها من جديد.

لقد أبدى البروفيسور **كزافييه روفيه** Xavier Raufer من قسم **علم الجريمة** في جامعة **باريس الثانية** قلقه من التعديات الخطيرة التي تلحق بالبيئة، وهي تعديات تسببت بها العولمة، وعلى وجه الخصوص: تهريب الممنوعات والصناعات الكيميائية غير القانونية وبسبب تهريب النفايات السامة[٩٥]. ويشير **برنار ماروا** Bernard Marois، البروفيسور في **المدرسة التجارية العليا** (HEC) إلى أن العولمة قد حققت حتى الآن حصيلة إيجابية. فالارتفاع المستمر للمنجزات الاقتصادية للكوكب سمح بأن يرتفع معدل حياة الإنسان من ٤٠ إلى ٦٥ عاماً، وأن تنخفض نسبة الناس المحرومين من المياه الصالحة للشرب من ٦٥٪ إلى ٢٠٪، وأن تشهد في الوقت نفسه نسبة الأميين انخفاضاً مماثلاً من ٥٢٪ إلى ٢٦٪. ولكن العولمة عمقت عدم المساواة داخل كل دولة. وفي المقابل يبدو أن الفوارق بين الدول قد تقلصت. وتسعى العولمة إلى تشجيع توزيع الاختراعات الجديدة، كما تشجع أيضاً توسيع الأسواق. أما **جيفري د. ساش** Jeffrey D. Sachs، مدير **معهد الأرض في جامعة كولومبيا** فإنه يلح من المنظور نفسه على

---

(٩٥) صحيفة ليبيراسيون، ٧ أبريل "نيسان" ٢٠٠٨م.

ضرورة تعاون كوني مهما كان صعب التحقيق، ومهما كانت مخاطره من أجل تشجيع التقنيات الجديدة "مثل الطاقة نظيفة، واللقاح [٤٤] ضد حمى المستنقعات، أو الزراعات التي تقف في وجه التصحر" بوصفها فرصاً سانحة لحل المشكلات العالمية، "وعلى وجه الخصوص عدم التساوي الصارخ في المداخيل، والأضرار الفادحة التي تلحق بالبيئة":

يمكن لجوانب التقدم الفعالة أن تحمل للبشرية منافع لا يمكن تخيلها. ويا للعصر الحماسي الذي يعيشه حينئذٍ العلماء أو المهندسون الذين عليهم مواجهة تحديات التنمية المستدامة![٩٦]

حقاً إن التنمية تبدو في بداية القرن الحادي والعشرين هذه مغامرة متنقلة، ذات طبيعة اقتسامية توزيعية، وإنه لمن المناسب أن نمنحها بدون إكراه، وبحذر وتعقل، بداية ومساراً. وربما تمثل المشكلات التي اختارتنا الفرصة التي يتيحها القرن الحادي والعشرون. ولكي نختم نترك الكلمة، تحت نظرة الملاك الجديد لبول كلي، لعالم الاقتصاد الهندي أمارتيا سن Amartya Sen:

ينبغي على التنمية والبيئة أن تكونا مندمجتين، لا متناقضتين. إن التنمية في جوهرها هي مسار من المسؤولية، ويمكن لهذه السلطة أن تُستخدم للحفاظ على البيئة وإثرائها بدلاً من القضاء عليها[٩٧].

كذلك يمكن للتنمية، لهذه البداية الجديدة، ألا تتجاهل الحياة، والألم، والفرح، وجودة الماء والهواء والأرض والنار، وجودة الوجود، ومحاسن التعاضد، وهبة الشهامة، ومعارف الثقافات وحكمها.

---

(٩٦) مجلة ليزيكو، ١٨ و ٢٥ فبراير"شباط"٢٠٠٨م.

(٩٧) نقل هذا القول الصحفي سيرج كوفمان Serge Kaufman في صحيفة لوموند، الثلاثاء ١٣ فبراير"شباط" ٢٠٠٧م.